طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
لائحة القومي العربي
www.qawmi.com

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

طلقة تنوير العدد 45: في مئوية جمال عبد الناصر

عبقرية ناصر

بشار شخاترة

النموذج الناصري ليس جديراً فحسب بالدراسة والبحث لما لهذه الشخصية من مضامين تستحق الفهم والتدبر، وتكريس هذا النموذج الاستثنائي في التاريخ العربي الحديث، فعبد الناصر ليس قضيةً للبحث واستخلاص العبر، فهذا يهضم حق هذه الشخصية وذلك لكون عبد الناصر حالة ثورية حياتية تتسم بالبساطة والغِنى والبعد عن التعقيد، وكون عبد الناصر ما يزال حاضراً في تفاصيل الواقع السياسي العربي.

وجدلية عبد الناصر تتجلّى بمفارقة فريدة من جهة أعدائه، فهؤلاء ساهموا بتكريس هذا النموذج المتميز للزعامة السياسية من باب أنّ معارك عبد الناصر معهم أورثَتهم هزائمَ وأورثته حقدهم، ويمكن القول وبحقٍ أنّ مروحة الأعداء الواسعة أعطت لشخصية عبد الناصر تنوعاً يعبّر عن مآزق هؤلاء، فعداء الصهيونية له أبرزت في شخصيته الملامحَ القومية والتمسّك بعروبة فلسطين وأيقونة التحرير التي كانت هاجساً دائماً في فكره.

أما عداء الإمبريالية له فلا يقلّ شراسةً، لا بل إنّ الصراع مع الإمبريالية وذيولها من الرجعية كان هو الصراع الأهم في مسيرة عبد الناصر النضالية، فتدمير الكمبرادور المصري ومحاربة الاحتكارات والتأميم فتح معركة مع الإمبريالية على مراكز قوتها في البنية الاقتصادية والسياسية المصرية، وبنفس الوتيرة كانت التجربة الناصرية في اشتباكٍ حقيقي وشرس في أفريقيا وفي الجزائر واليمن وغيرها، فتأزُّم حالة الصراع مع الإمبريالية توّجت هذا القائد على رأس هرم حركة التحرر العالمي، وهذا الملمح العالمي لشخصية عبد الناصر وانحيازه لقضايا التحرر وضع مصر والعروبة على خارطة السياسة العالمية في القرن العشرين.

وأما عداء الإخوان المسلمين لعبد الناصر وحربهم معه فهذه ثالثة الأثافي، وهذه الحرب التي لا يزال الإخوان المسلمون يخوضونها تعبّر عن مبلغ حقدهم جرّاء هزيمتهم السياسية، وبالنتيجة فإنّ تقاطُع الإخوان مع الخطّ الإمبريالي والرجعي والصهيوني في مواجهة المشروع الناصري يضع كل هذه القوى في بوتقة واحدة.

طلقة تنوير 45: في مئوية جمال عبد الناصر

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 شباط 2018

- **عبقرية ناصر/ بشار شخاترة**
- **نحو قراءة جديدة في "فلسفة الثورة" لجمال عبد الناصر/ إبراهيم علوش**
- **منبر حر: قواعد في المشروع العربي كما اثبتها واقعاً نموذج العهد الناصري/ واصل البدور**
- **الوحدة وعبد الناصر/ نسرين الصّغير**
- **الصفحة الثقافية: مصر بين مرحلتيْن في فيلم (المواطن مصري)/ طالب جميل**
- **انعكاس السيطرة المصرية على جنوب بلاد الشام من خلال رسائل تل العمارنة/ فارس سعادة**
- **تاريخيّة السّيرة (4) – المؤسّسات الدّينيّة/ محمد العملة**
- **قصيدة العدد: الهرم الرابع/ نزار قباني**
- **كاريكاتور العدد**

لمتابعتنا انظر موقع لائحة القومي العربي:
www.qawmi.com
وصفحة (لائحة القومي العربي) على فيسبوك
روابط صديقة:
موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:
arab.nationalist.moderator@gmail.com

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

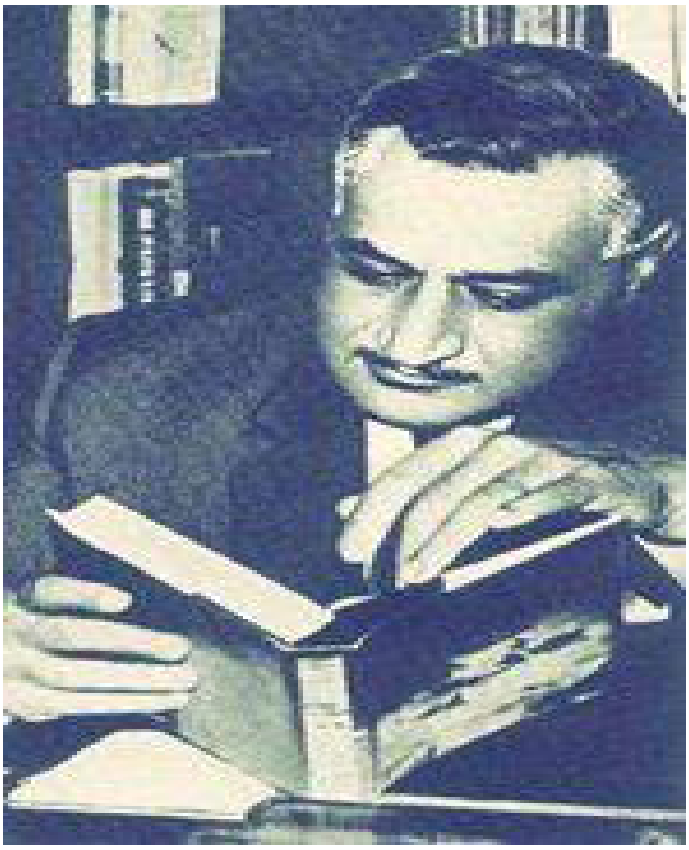

الملاحَظ أنه يغلب على التجربة الناصرية طابع الارتجال؛ وهنا يجب أخذ هذا المصطلح على محملٍ إيجابي، ومن بابٍ أدق سارت التجربة بالمحاولة والخطأ ومرجع ذلك أنّ عبد الناصر، وباعتباره قائد ثورة يوليو، لم تكن له أية خلفية إيدولوجية أو تنظيمية حزبية، والنسق التنظيمي لتنظيم الضباط الأحرار ارتكز إلى الخلفية العسكرية في التنظيم والإدارة والتخطيط دون أية روافع عقائدية مسبقة، وإنما مجموعة من الثوابت والمبادئ.

لكن عبد الناصر لم يُلحظ له تنظيرٌ قوميّ قبل الثورة، مع أن هذا الجانب كانت له بوادر في حرب فلسطين التي أعطته شرارة الفكر الأولى على هذا السياق. فقبل ذلك كانت مصر كلها منطوية على ذاتها وأعظم الهمّ فيها هو همٌّ مصري، ولا شكّ أن انخراط الجيش في حرب عام 1948 قد زجّ بمصر كلها في الهمّ القومي العربي وتنبّه عبد الناصر لخطورة ما يجري من دروس تلك الحرب.

المسار الارتجالي، إنْ جاز التعبير، لهذه التجربة الغنية كان يسير سيراً صحيحاً، وإن كانت له تبعاته غير المحمودة، لكن النتيجة الكلية للمسار كانت تتجه اتجاهاً صحيحاً، ومردّ هذا إلى أنّ جمال عبد الناصر اتّبعَ معياراً سليماً حين بدأ أولاً وبمرحلة مبكرة من ربط ما يجري في القُطر المصري بالمصلحة الوطنية المصرية، واستطراداً على هذا النهج فيما يتعلق بحرب فلسطين والأسلحة الفاسدة ومرارة الهزيمة أدرك أنّ المصلحة الوطنية تتجاوز الحدود القُطرية وتبدأ من خلف تلك الحدود، بل إلى أبعد من ذلك من العراق وسورية، وهنا نلفت النظر إلى أن المعيار السليم يؤدي إلى سلامة النتائج والمسار حتى لو رافقها تطبيق المحاولة والخطأ.

وبعد أن استقرّت الثورة وبدأت بالعمل الجاد والانطلاق لتحقيق التنمية الشاملة والبناء التحتي صناعياً وزراعياً بدأت مرة أخرى تفرض الأحداث خارج حدود مصر ذاتها على الداخل وبقوة، فأصبحَ واضحاً لدى عبد الناصر أن المعيارَ الوطني المصري السليم لا بد أن يتطابق مع المعيار القومي كذلك، ومن لحظة تكشّف النوايا الأمريكية بربط تمويل السدّ العالي باتفاق تسوية القضية الفلسطينية، صار المعيار الناصري هو مصلحة الأمة العربية والتي هي بالنتيجة معيار المصلحة المصرية الوطنية وأنّ هذين معيارٌ واحدٌ باسمين.

لا شكّ أن المعيارَ الذي انتهجه عبدالناصر مهّد الأرضية للصِدام مع الإمبريالية وذيولها في الوطن العربي، وهذا ليس من باب العدوان وإنما بوابة ردّ العدوان الإمبريالي وحلفائه الصهاينة وأذياله من الرجعية العربية، فقد امتشق النهجُ الناصري سيفاً ثورياً منذ ولادة تجربته في 23 يوليو 1952، وأصبحت هذه الثورة تتعمق كلما تقدمت للأمام، ومن الملاحظ أنّ حرب عبد الناصر مع الكمبرادور المصري وتصفية نفوذه في مصر إلى حد كبير كانت صناديق البريد الأولى إلى المركز الإمبريالي العالمي بقيادته الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية تُفصِح عن ملامح الثائر الجديد، وأنّ الأمر ليس مجرد انقلابٍ عسكري يمكن التفاهم معه واحتواؤه، وإنما قطبٌ وطني يدمّر الركائز الإمبريالية في مصر اقتصادياً، ليتطورَ في خطة الدفاع بالمبادرة لتصفية ذيول الاستعمار في أفريقيا وآسيا.

الظاهرة الناصرية كما جسّدها عبدالناصر تصلح مثالاً هاماً لنقاش الإيدولوجيا بشكل عام لجهة بروز القيادة الثورية التقدمية، فعبد الناصر تبنّى في التطبيق الواقعي خطاً ثورياً جذرياً لا إصلاحياً، ففي كل مفاصل ثورة 23 يوليو كان التطبيق يسير في خطين متوازيين؛ الأول جماهيريٌ منحازٌ للطبقات المسحوقة اقتصادياً من فلاحين وعمال وطلبة

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

ويحمل في طياته برنامجاً ثقافياً عمّم القراءة ووسّع من دائرة نشر الكتب الهادفة التي تركّز على تكريس فكر الثورة المتنامي، والذي تعززه التجربة بنقاطها المرجعية وطنياً وقومياً، أمّا الخط الثاني فكان حاسماً في مواجهة الاستعمار وذيوله ودون تنازل، وهذا ناتجٌ عن وعي لطبيعة المعركة.

والملاحَظ على هذيْن الخطين أنّ الخط الثاني اتّسم بالدقة وبالوضوح في الممارسة، ويجد المراقب أنّه بالنظر إلى معايير إيديولوجية ماركسية على سبيل المثال، فإنّ النهجَ الناصري كان متقدماً على تلك الإيديولوجيا التي كانت تعاني من خربطات وحَوَل عقائدي في حُكْمها على الحركة الصهيونية على سبيل المثال، وكذلك كان متقدماً على النهج الشيوعي العالمي في علاقته مع الإمبريالية العالمية، فهذا الرجل رغم أنه لم يتتلمذ في مدارس اليسار أو الإسلام السياسي أو حتى في المدرسة القومية، إلا أنّه توصّل إلى ما يتقدم على كل تلك المدارس، لا بل وأضاف وأغنى المدرسة القومية حتى أصبح علامة فارقة ومدرسة من مدارس القومية العربية ومرجعية يُعتَدّ بها، وهذا يثبت نقطة مهمة جداً في القضية القومية العربية: أنّ الاستناد إلى نقطة المرجع المرتبطة بالمصلحة القومية لا تحتاج إلى معلّم، بل هي قضية ترتبط بالممارسة وإن كنّا نتبناها من ضمن المنهج القومي العربي السليم كمعيار، فعبد الناصر بدأ بداية صحيحة، وهذه أقالت تجربته من كثير من العثرات، لكوْن ثورة 23 يوليو وعناصرها القيادية كانت قليلة التجربة ولم تكن تملك الإيديولوجيا أو البرنامج الجاهز، ولكون المعيار الناصري مرتبطاً بالمصلحة القومية والوطنية، استطاع أن يسيرَ في خط العلاقة مع الاستعمار والإمبريالية سيراً صحيحاً مبهراً، ولكنّ المسار الأول لم يكن بالتفوق والنجاح الذي حققه المسار الثاني. لماذا ؟

إنّ واقعَ الجبهة الداخلية من حيث التطبيقات الاقتصادية والنهوض بالمجتمع وتكسير بنية الوعي المتكلّسة والقائمة على علاقات متخلّفة في بنية المجتمع اقتصادياً، كانت التجربة الأعقد والأكثر استعصاءً على الحل، فإذا كان من الواضح أن من الضروري لهزيمة الكمبرادور وقوى الرجعية داخلياً هو ضرب بُناها الاقتصادية فإن بُناها الثقافية كانت أكثر عناداً، وخصوصاً تلك المتّصلة بغيبيات وموروث ديني مشوّه ونمط من العلاقات المنبثق عن مجتمع إقطاعي قاسي في تطبيقاته وتفاعلاته وتجذّر هذه العلاقات عبر ما يزيد على قرن أو أكثر من الزمن.

فمشكلة التخلّف تحتاج إلى أكثر من المحاولة وإلى أكثر من الإيديولوجيا، إنها تحتاج إلى التنظيم الثوري الرديف الذي يتولّى التعبئة والتنظيم الجماهيري، وهذا يخدم خطيْن متوازييْن: الديمومة وتحمل العبء، وقد كان لدى عبد الناصر حساسية كبيرة من التنظيمات الحزبية إن لم نقل أنّه كان معادياً لها، ومما عزّز من جفوة عبد الناصر لفكرة التنظيم، وخصوصاً في الشطر الأول من التجربة الناصرية هو جماهيريته العالية؛ فالتفاف الجماهير حوله وتجربته السيئة مع الأحزاب أبعَدَت عبد الناصر كثيراً عن إيجاد التنظيم، وعندما حاول في هذا المجال كان تنظيماً على هامش الدولة وأذرعها الأمنية، وهذا بالمقارنة مع تجربة البعث في العراق وسورية، فبقيت التجربة الناصرية من ناحية التنظيم غير ناجزة وتتسم بالمراهقة إذا جاز التعبير، ولا نبالغ بالقول إذا قلنا غير جادة. ولذلك فإنّ اعتماد التجربة الناصرية على الدولة وأجهزتها لم يكن كافياً لمحاربة التخلّف وبناء الوعي الثوري الذي يحصن الثورة ويدرأ عنها مخاوف الانقلاب والثورة المضادة، وهذا ما حدث بعد وفاة عبد الناصر بالضبط.

عبد الناصر ابن مرحلةٍ اتسمت بثقافة تحرر وتقييم واعٍ لمخاطر الاستعمار، وبذات الوقت كان الإسلام السياسي ضعيف الأثر لأنه لم يزل في بداياته، فخيارات عبدالناصر السياسية، وكثيرٍ من أبناء جيله بالاستقلال عن نفوذ الإقطاع والكمبرادور والإسلام السياسي، أفرَزَ وعياً سياسياً أكثر اتّزاناً وأبعدَ عن التجيير الحزبي وخلفياته وارتباطاته، لذا فإنّ معيار السياسة، وهو المصلحة الوطنية، يصبح الإيديولوجيا لهذا الجيل السياسي، وهو ذاته نفس المعيار السليم قومياً في تطور عمل عبد الناصر السياسي، لنقول أن الإيديولوجيا لا تخلق دائماً مثل هذا النوع من التجليات كعبد الناصر، وهذا ليس هجوماً على الإيديولوجيا ولكنه هجومٌ على معاييرها، لأن الإيديولوجيا هي المادة الوراثية للسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، ولا بديل عنها سواها مع التأكيد على سلامة ضابطها، فعبد الناصر امتلَكَ المعيار مبكراً وتدرّج في الإيديولوجيا القومية، وحين بدأ أكل هذا النضوج تظهر بوادره بتأسيس تنظيم الطليعة العربية، جاءت الضربة الحزيرانية عام 1967 لتقوّض أهمّ وأخطر إنجازات الناصرية.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

تبقى هذه التجربة النضالية درساً عظيمَ الفائدة، وتمتد بمؤشراتها عبر التاريخ وعبر المستقبل للوقوف على تفاصيلها برؤية عصرية، فكثيرٌ من المضامين في هذه التجربة قابلٌ للتطبيق وبعضها قابلٌ للتطوير على أساسها، وبعضها تجاوزه العصر. بقيَ أن نقول أنّ عبد الناصر أعادَ أمَّ الدنيا إلى الدنيا بمضامينه العربية، وأن من جاء بعده وأدها حيّة بمضامينه الليبرالية والقُطرية الضيقة. تسطع شمس مصر بالعروبة وتكبر لتصبح بحجم الأمة وتتقزّم لتصبحَ حيّاً في مدينة منسية في أقاصي الدنيا بانكفائها على ذاتها، باختصار هذه هي عبقرية ناصر.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

نحو قراءة جديدة في "فلسفة الثورة" لجمال عبد الناصر

إبراهيم علوش

هو تمرين في السهل الممتنع، قد يبدو للوهلة الأولى كأنه مجموعة خواطر عامة فحسب لا تتمتع بالمضمون الصلب والملموس الذي قد تجده في "الميثاق" مثلاً. وهو كتابٌ يشكّل علامة فارقة في الأدبيات القومية العربية، وبصفته سهلاً ممتنعاً ربما يوحي "فلسفة الثورة" بالسطحية لمن يقرأه بشكل سطحي، لكنه ليس كذلك على الإطلاق لمن يقرأه بتمعنٍ وتعمقٍ، بل أزعم أنه يشكل تمريناً فذاً في مخاطبة الجماهير، في سرديته وبساطته ورسالته المخبأة بين السطور، بعيداً عن فذلكات المثقفين ("لست أدعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ... ذلك آخر ما يجري في خيالي")؛ فهنالك من يحاول أن يظهر كأنه ابتلع معجماً للمصطلحات، من دون أن يمتلك فكراً أو نظرية أو مشروعاً يملأ جوانحه، وذلك شأن من يسعى للترويج لنفسه على حساب الفكرة، وهنالك المعلم الحقيقي الذي يطوّع الفكرة المعقدة ليقدّمها بأبسط الحلل، وذلك شأن من يسعى للترويج للفكرة فيذوب فيها ناسياً ذاته، وجمال عبد الناصر بالضرورة من النوع الثاني.

وشأن عبد الناصر في "فلسفة الثورة" يتجاوز امتلاكه لتقنيات الخطاب الجماهيري ليدخل، قبل ذلك وبعده، في تمرينٍ أكثر خطورةً بكثير هو محاورة الذات ومساءلتها في القضايا الأكثر صعوبة في العمل السياسي ("إنها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكي نعرف من نحن"). وجمال عبد الناصر في "فلسفة الثورة" يسائل ذاته منهجياً بصرامة حول صحة المواقف والتوجهات التي تبنّاها كمناضل وكضباط أحرار قبل ثورة 23 يوليو، ثم يسائل ذاته عن تصوره لما مثّلته ثورة 23 يوليو في ذهنه عشية القيام بها ليواجه نفسه بصراحة حول عدم دقة ذلك التصوّر بعد القيام بها. يقول عبد الناصر: "لقد كنتُ أتصور قبل 23 يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وأنها لا تنتظر إلا الطليعة تقتحم أمامها السور، فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصّة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلى الهدف الكبير...ثم فاجأني الواقع بعد 23 يوليو.. قامت الطليعة بمهمتها، واقتحمت سور الطغيان، وخلعت الطاغية، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير... وطال انتظارها، لقد جاءتها جموعٌ ليس لها آخر.. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال! كانت الجموع التي جاءت أشياعاً متفرقة، وفلولاً متناثرة، تعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر.. كانت هناك أنانية فردية مستحكمة.. كانت كلمة "أنا" على كل لسان.. كانت هي الحل لكل مشكلة، وهي الدواء لكل داء.. وكثيراً ما كنت أقابل كبراء – أو هكذا تسميهم الصحف – من كل الاتجاهات والألوان، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلاً لها، فلم أكن أسمع إلا "أنا"..".

شيءٌ مرعبٌ الذي يصفه لنا جمال عبد الناصر هنا؛ مرعبٌ لأي ثوري حقيقي، وكفيلٌ بدفع من لا يؤمن إيماناً حقيقياً بالفكرة لأن يشعر بالخذلان ويتخلّى عنها مقتنعاً نفسه بأنه قام بما يتوجب عليه أن يقوم به، لكن الناس "لم يتجاوبوا"! أما عبد الناصر فليس ممن ينثنون ويتخاذلون، لذلك ذهب بعيداً في البحث عن سبب عدم وجود كتلة جماهيرية متراصّة كان يتصور أنها يُفترَض أن تكون جاهزةً لدعم ثورة 23 يوليو فلم يجدها.. .. وهكذا دخل عبد الناصر، في الجزء الثاني من "فلسفة الثورة"، في جولة في أعماق التجربة الجماهيرية مع المماليك والإقطاع والإنكليز وغيرهم ممن تعاملوا مع مصر كغنيمةٍ وحوّلوا الشعب إلى متفرّج سلبي على شؤونه العامة على مدى قرونٍ طويلة مما منع تبلور رأي عام، أو مجتمع سياسي متماسك.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

يقول عبد الناصر: "لقد جاء عليّ وقتٌ كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون، وأن اجتماعهم لا ينعقد على طريقٍ واحدٍ يسيرون فيه، ثم أدركت بعدها أنني أطلب المستحيل، وأنني أسقط من حسابي ظروف مجتمعنا.. إننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجي بعد مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق"...

وإذا كان مثل هذا الكلام يصحّ على مصر ذات التاريخ المدني العريق، فما بالك ببعض الأقطار العربية الأخرى التي لم تعرف مدنية مصر واستقرارها، وما بالك بالمجتمعات التي يشتدّ فيها أثر العشيرة والقبيلة والحارة والناحية والمنطقة، والتي عرفت بدورها مثل ما عرفته مصر من أثر مدمر على نسيجها وتطورها من قبل الغُزاة ورعاة الاستغلال والاضطهاد؟ وقد بدأ عبد الناصر هذه المعالجة بالقول: "كثيراً ما كنا معبراً للغزاة، مطمعاً للمغامرين، ومرت بنا ظروفٌ كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة في نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار". ليضيف عبد الناصر بعد ذلك تأثير الانفتاح على العوامل الثقافية الخارجية التي أضفت المزيد من الفوضى على بُنيتنا الاجتماعية غير المتماسكة أصلاً: "كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله، خصوصاً بعد تحوّل التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فإذا نحن مطمع دول أوروبا ومعبراً إلى مستعمراتها في الشرق والجنوب. وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي وصلنا إليها في تطورنا تؤهلنا لقبولها. كانت أرواحنا ما زالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر، وإن سَرَتْ في نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين"، ولعلّ من المهم جداً للمؤمنين بالمشروع القومي العروبي في القرن الواحد والعشرين أن يدركوا أنّ مثل هذه الفوضى ازدادت، بدلاً من أن تخفّ، بفعل تأثيرات العولمة من جهة والبترودولار التكفيري من جهةٍ أخرى، وفي ظلّ مثل هذه الظروف الواقعية بالذات، لا في ظلّ خيالاتنا المثالية، علينا أن نعملَ ونناضلَ في القرن الواحد والعشرين، ولنا في جمال عبد الناصر أكبر ملهم.

إنّ من بديهيات الكتابة الموضوعية في المقالات والأبحاث الرصينة هي تجنّب استخدام كلمات مثل "أنا" و"إنني" وما شابه، وضرورة الفصل بين الذات والموضوع، بمعنى تحييد الذات من أجل عرض الأمور بموضوعية، وباستثناء بعض الروايات والسير الذاتية، فإنّ إقحام الذات في الموضوع، والتحدث مراراً وتكراراً عن الذات، كثيراً ما يشي بالنرجسية وعدم النضوج الفكري أو السياسي، إلا في حالة جمال عبد الناصر في "فلسفة الثورة".. فقد عرف كيف يزاوج فيه بين الذات والموضوع من دون علوٍ أو تكبر، ليكونَ قريباً من عامة الناس، وليقرّب الموضوع من فهم المواطن العادي الذي قد يملّ ويأنف من الكتابة الموضوعية بشكلها التقليدي، فقد تمكّن عبد الناصر في "فلسفة الثورة" من أن يبدأ من الصفر، من دون تكلّف أو تصنّع، ليصعدَ مع القارئ درجة درجة، بأناةٍ وتؤدة، في سلم الإدراك القومي لتظهر طريقة وصوله لاستنتاجاته "من الداخل"، كأنها عملية عقلية يشارك فيها القارئ، لا كأنها نظرية متبلورة مقددة يفترض أن يتلقنها القارئ، وقد فعل كل ذلك وهو يصرّ: لست فيلسوفاً، ولست أستاذاً للتاريخ، بل أنا تلميذٌ مبتدئ... إلخ.

لكن انظروا كيف تناوَلَ مسألة العلاقة بين الذات العارفة والموضوع بتجرد، وبلغةٍ بسيطة، وهي واحدة من أعقد المسائل في نظرية المعرفة (الابستمولوجيا إذا أردنا استخدام لغة المثقفين)، وهي: هل يمكن فصل الذات عن الموضوع حقاً؟ يقول عبد الناصر: "أنا من المؤمنين بأنه لا شيء يمكن أن يعيش في فراغ.. حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيشَ في فراغ.. والحقيقة الكامنة في أعماقنا هي: ما نتصوره أنه الحقيقة، أو بمعنى أصحّ: هو الحقيقة مضاف إليها نفوسنا... نفوسنا هي الوعاء الذي يعيش فيه كل ما فينا وعلى كل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه، حتى الحقائق"، ليضيف بعدها بكل صدق وتجرد: "وأنا أحاول بقدر ما تستطيع طاقتي البشرية أن أمنع نفسي من أن تغير كثيراً من شكل الحقيقة، ولكن إلى أي حد سوف يلازمني التوفيق؟ هذا سؤال.. وبعده أريد أن أكون منصفاً لنفسي، ومنصفاً لفلسفة الثورة، فأتركها لتاريخ يجمع شكلها في نفسي، وشكلها في نفوس غيري، وشكلها في الحوادث جميعاً، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة". وهذه جملٌ يمكن أن تُقرأ كخواطر جميلة، لمن يحب الخواطر، ويمكن أن تُقرأ كفلسفة معرفة، ولكن القصد منها، على ما أراه، هو تحديد منهجية البحث والكتابة التي سلكَها عبد الناصر في "فلسفة الثورة"، وليس أمراً بسيطاً أن يتمكن المرء من أن يعبر عن مثل تلك الفكرة المعرفية المعقدة، التي وضعت فيها مجلدات عويصة، بمثل هذا القدر القليل من التعابير العادية، فتلك هي دلالة امتلاك الفكرة المعقدة العالية: القدرة على إبراكها على الأرض ليمتطي صهوتها من يسير على الأرض، باختصار، القدرة على إيصال الفكرة المعقدة ببساطة..

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

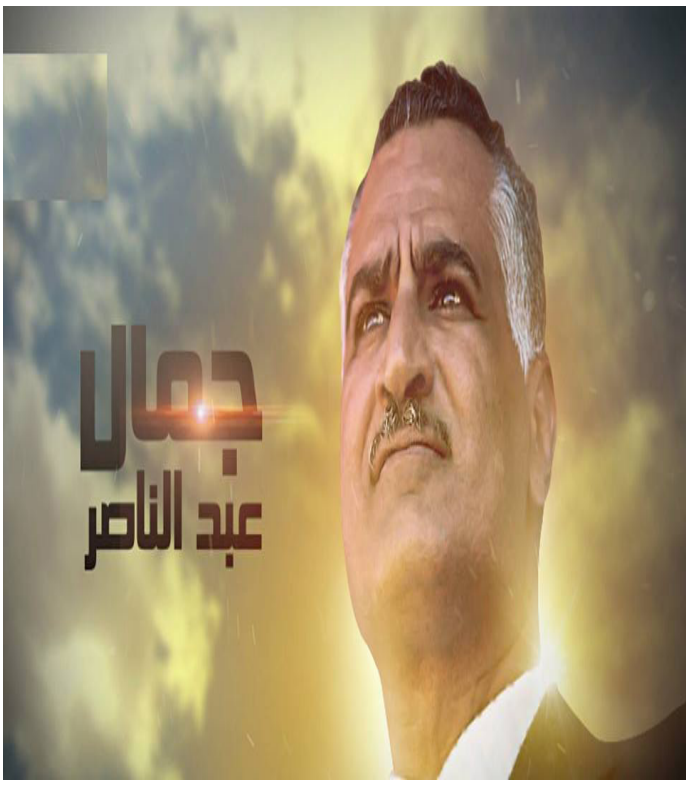

القدرة على الإمساك بتلابيب الأفكار المعقدة المترابطة وتقديمها ببساطة إذن شرطٌ ضروري للإمساك بالمفاصل المركزية للظروف المعقدة. فلننظر مثلاً كيف تناول عبد الناصر في "فلسفة الثورة" مسألة العلاقة بين الثورة السياسية، التي يستردّ فيها الشعب حقّه في حكم نفسه من الاستعمار أو من وَضَعه الاستعمار وكيلاً عنه، وبين الثورة الاجتماعية، التي تهدف لتحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية. فالأولى، ثورة التحرر السياسي، تتطلب القدر الأكبر من الوحدة الوطنية بين شرائح الشعب، أما الثانية، ثورة التحرر الاجتماعي، فعنوانها الرئيسي هو الصراع الاجتماعي والطبقي، مما يضعف الوحدة الوطنية بالتعريف. وإذا كان غيرنا من الشعوب قد حقق الثورة السياسية أولاً، ثم الاجتماعية، عبر تدرج تاريخي طبيعي احتاج لقرونٍ، فإننا مضطرون للحاق بالزمن أن نقوم بالثورتين في آنٍ معاً، لأن ترك كبار الملّاك والطبقة السياسية التقليدية تتحكم بمجريات الثورة السياسية سيؤدي، كما أثبتت التجربة، لاختراقها من الداخل، وعودة الاستعمار والطغيان من الشباك بعد أن تمّ طرده من الباب، ولأن مفهوم التحرر السياسي يظلّ منقوصاً إذا لم يقترن بالتحرر الاجتماعي والاقتصادي، وهي الفكرة التي طوّرها جمال عبد الناصر فيما بعد في "الميثاق"، الذي نُشر بعد "فلسفة الثورة" بثماني سنوات، لكنّ النواة الأولى لفكرة المزاوجة بين التحرر السياسي والتحرر الاجتماعي نجدها في "فلسفة الثورة": "كان لا بدّ أن نسير في طريق الثورتين معاً. ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقاً عن عرشه سرنا خطوة مماثلة على طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحييد الملكية"، ثم يتابع: "حين جاءني واحد من أصدقائي يقول لي: "أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز. وأنت في نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر في عملها"، استمعت إليه، وكانت في خيالي أزمتنا الكبيرة، أزمة شقي الرحى: أزمة تقتضينا أن نتحد صفاً واحداً وننسى الماضي. وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضي! ولم أقل لهذا الصديق: إن منفذنا الوحيد إلى النجاة أن نحتفظ بسرعة الحركة والمبادأة، وبالقدرة على أن نسير في طريقين في وقت واحد".

البُعد السردي في "فلسفة الثورة"، والذي يبدو أحياناً كسيرة ذاتية لتطور عبد الناصر الفكري، ليس كما يبدو في الظاهر على الإطلاق، أي مجرد سرد و"فضفضة". فهو يبدأ بمرحلة الشباب والمشاركة في المظاهرات الجماهيرية التي طافت على بيوت الزعماء التقليديين مطالبةً إياهم بالاجتماع على كلمة واحدة من أجل استقلال مصر، وكان اعتقاد عبد الناصر آنذاك أن ذلك هو "العمل الإيجابي": "طافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة.. ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيعةً لإيماني. فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة 1936" (بين مصر وبريطانيا التي مددت لبقاء القوات البريطانية في مصر بشروطٍ مختلفة). ثم ينتقل عبد الناصر لمرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية بقليل وخلالها التي تشكّلت فيها تنظيمات سرية استخدمت الرصاص والقنابل في الصراع السياسي ضدّ النظام الملكي وأعوانه، ليستنتجَ من تلك التجربة: "كانت في نفسي حيرة، تمتزج فيها عوامل متشابكة، عوامل من الوطنية ومن الدين، ومن الرحمة ومن القسوة، ومن الإيمان ومن الشك، ومن العلم ومن الجهل.. ورويداً رويداً وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر..."، ومن تلك التجربة، يقول عبد الناصر: "بدأ تفكيرنا في شيء أعمق جذوراً وأكثر خطورةً وأبعد غواراً. وبدأنا نرسم الخطوة الأولى في الصورة التي تحققت مساء ٢٣ يوليو، ثورة منبعثة من قلب الشعب، حاملة لأمانيه، مكمّلة لنفس الخطوات التي خطاها من قبل على طريق مستقبله»، ومن تلك النقطة يعود عبد الناصر، في بحثٍ مستمرٍ عن الحقيقة الثورية، لشعوره بنقصٍ ما انتاب ثورة ٢٣ يوليو هو غياب المشاركة الجماهيرية الواسعة فيها، مع أنه تطرّق في أكثر من موضع للعوامل التي رشّحت الجيش بالذات للدور الذي قام به في تلك الثورة كرافعة لم يكن يوجد غيرها فعلياً لتحقيق التغيير، أو لفتح آفاقه على الأقل.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

ما لدينا هنا إذن ليس مجرد سيرة ذاتيةً، ولا سرد شيّق لتطور وعي جمال عبد الناصر السياسي، إنما مناقشة حميمة مع المواطن العادي، بجدية ولكن بغير أسلوب المثقفين، لماذا يتوجب التخلي، في خضم البحث عن الطريق إلى الأمام، عن: 1) الطريق الإصلاحي عبر العمل من داخل النظام الملكي وقياداته التقليدية، و2) الطريق المغامر العنيف الذي تعتمده المجموعات الصغيرة السرية، و3) لماذا لا يكتمل الطريق الانقلابي الذي اتبعته ثورة 23 يوليو إلا إذا حظيَ بمشاركة شعبية واسعة، وإلا إذا انطلق في الآفاق الرحبة للتغيير السياسي والاجتماعي غير القائم على تغيير الوجوه فحسب. والفقرة أعلاه، كملخص لما رمى إليه عبد الناصر في سرديته عن تطور وعيه السياسي بالنسبة لطرق التغيير، هي أقل تشويقاً بكثير بالضرورة بالنسبة للمواطن العادي، من السردية القريبة من القلب التي قدّمها عبد الناصر ليخاطب فيها العقل والفؤاد في آنٍ معاً، إنما هذه إعادة قراءة لمنهجية "فلسفة الثورة" وروحه، لا مجرّد تلخيص أكاديمي لمجمل نقاطه الرئيسية، التي تفيض عما ذكرته بكثير.

عنصر التشويق والسرد وتغيّر الشخصية وتطورها في سياق ذلك السرد – السياسي بالطبع – لا تتناول الشخصية الروائية فحسب، إذا صحّ التعبير، بل تتناول الفكرة الروائية نفسها، وبطريقة أقل ما يُقال فيها أنها مبدعة تماماً. ولا يصحّ ذلك أكثر مما يصحّ في الصفحات الأولى في "فلسفة الثورة" التي تتناول، فيما تتناوله، تجربة عبد الناصر وزملائه في القتال في فلسطين حيث يكاد يوحي للقارئ أنه والضباط الأحرار كانوا يقاتلون في فلسطين وعقلهم وقلبهم في مصر، وهو يقول في هذا الصدد: "لو كان الضباط الأحرار حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم في فلسطين، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة، ولكان أقرب الأشياء إلى وصفه أنه مجرد تمرد"، ثم يتابع: "حين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين أجد شيئاً غريباً، فقد كنا نحارب في فلسطين، ولكنّ أحلامنا كلها في مصر، كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه، وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز".

للوهلة الأولى، قد يبدو للقارئ أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن أي شخص أو قائد قومي عربي، لا سيما عندما يذكر عبد الناصر ما نقله كمال الدين حسين عن أحمد عبد العزيز قبل وفاته: "اسمع يا كمال، إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر...". يزداد الأمر حيرةً وتشويقاً حين يقول عبد الناصر عن فترة الحصار التي اختبرها في الفالوجة المحاصرة (قطاع غزة) والأفكار التي كانت تراوده خلالها: "ها نحن في هذه الجحور محاصرين، لقد غُرر بنا، دُفِعنا إلى معركة لم نُعَد لها، ولقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات، وتُركنا هنا تحت النيران بغير سلاح؛ وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري كنت أجد خواطري تقفز فجأةً عبر ميدان القتال، وعبر الحدود، إلى مصر، وأقول لنفسي: هذا هو وطننا هناك. إنه "فالوجة" أخرى على نطاق كبير. إن الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحدث هناك. صورة مصغرة. وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء، وغرر به ودفع إلى معركة لم يعد لها، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات، وتُرك هناك تحت النيران بغير سلاح!".

عند هذا الحد يترك عبد الناصر تماماً مسألة العلاقة بين الوطني المصري والقومي العربي عشرات الصفحات حتى يصل إلى الجزء الثالث والأخير من "فلسفة الثورة"، تاركاً علامات استفهام كبيرة عما قصده بقوله أن مصر عبارة عن فالوجة كبيرة محاصرة، وأن المعركة هنالك. هل قصد، كما قد يُفهم الموضوع، لو قُرأ بشكلٍ سطحي، أن التغيير في مصر هو الأساس وبالتالي فإن الأولى ترك مشكلة فلسطين وعدم تضييع الوقت عليها للتركيز على مصر؟ أم قصد أن مصر محتلة مثل الفالوجة، وفلسطين لاحقاً، وبالتالي فإن الاحتلال الكبير هو الذي يجعل الاحتلال الصغير ممكناً، وأن إحداث تغيير حقيقي في مصر، بالإطاحة بالنظام التابع للاستعمار وبحكم الفئات الاجتماعية الطفيلية، جزءٌ لا يتجزأ من معركة تحرير فلسطين؟

إنّ ترك هذا الأمر الخطير معلقاً ومبهماً ما بين الجزء الأول والجزء الثالث من "فلسفة الثورة" ربما يعيده البعض إلى التطور الفكري الذي طرأ على وعي عبد الناصر في الأشهر الثلاث التي يقول عبد الناصر أنه ترك خلالها كتابة "فلسفة الثورة"، قبل أن يعود لإنجاز الجزء الثالث والأخير منه. وهذا محتمل بدرجة ما سوى أن عبد الناصر في الجزء الثالث يشرع، بعد التطرق لفكرة "عبقرية المكان" (اقرأ: الضرورات الجغرافية السياسية التي يفرضها موقع مصر وإرثها التاريخي في الصراع مع قوى الهيمنة الخارجية)، بالتحدث عن تطور وعيه القومي.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

ومرة أخرى نجده ينطلق بشكل متسلسل من البسيط إلى المعقد، من الإحساس إلى الإدراك، ومن الوعي القُطري المصري إلى الوعي القومي العربي المتجذر، وهو يفعل ذلك مجدداً بشكل سردي مبسّط، رابطاً الأمر بتطور وعيه هو، فيما كان يتحدث ضمناً عن شيء أعمق بكثير: وعي المواطن المصري. يقول عبد الناصر: «وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور...»، ليتابع: «وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت: لماذا أخرج في حماسة، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها؟ لم أكن أجد بنفسي إلا أصداء العاطفة. ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لمّا أصبحت طالباً في الكلية الحربية»، ليقول بعدها: «ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه ثم بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل. ولما بدأت أزمة فلسطين كنتُ مقتنعاً في أعماقي بأنّ القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض غريبة. وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة، وإنّما هو واجبٌ يحتّمه الدفاع عن النفس».

وفي الحقيقة أنّ من السذاجة بمكان الاعتقاد أن عبد الناصر كان يتحدّث هنا عن نفسه. لقد كان يتحدث للمواطن العادي، يمسك بيده برفق، ويأخذه في رحلة رائعة باتجاه عقلانية الحل القومي، لينحلَّ لغز «مصر فالوجة كبيرة محاصرة» في الصفحات الأخيرة من الكتاب: «إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقّى منها الأوامر تحيطها بحصار وتلحِق بها عجزاً أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجة. ثم هذه قوات إخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وفي المصلحة المشتركة وفي الدفاع الذي جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين. هذه هي جيوش إخواننا... جيشاً جيشاً... كلها هي أيضاً محاصرة بفعل الظروف التي تحيط بها والتي كانت تحيط بحكومتها.. لقد كانت جميعها تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين. وكانت شعوبنا جميعاً تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرات محبوكة أُخفَت عنها عمداً ما يجري، وضللتها حتى عن وجودها نفسه». وما يلي ذلك مباشرةً هو العنوان الفرعي: وحدة المصير العربي. وبعدها بصفحات يعود عبد الناصر ليؤكدَ النقطة بشكل أكثر قطعية: «وأعود للذي كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في «الفالوجة» وبجيوشنا جميعاً وبحكومتنا في العواصم التي نتلقّى منها الأوامر. ولقد بدأتُ بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي أؤمن بكفاح واحدٍ مشترك، وأقول لنفسي: ما دامت المنطقة واحدة، وأحوالها واحدة، ومشاكلها واحدة، ومستقبلها واحداً، والعدو واحداً مهما يحاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة – فلماذا تشتت جهودنا؟».

وكان يمكن أن أتناول الجزء الثالث من «فلسفة الثورة» طبعاً من خلال تناول موضوعة «نظرية الدوائر الثلاث»، العربية أولاً، التي أفرَدَ لها عبد الناصر العدد الأكبر من الصفحات ثم الإفريقية والإسلامية، لكن ما قصدته هو التركيز على منهجية جمال عبد الناصر في ترسيخ الفكرة القومية في الوعي الجمعي بطريقة عبقرية في الواقع، في مجتمع يعاني من تفكك سياسي وفوضى فكرية عارمة، وطريقته في بلورة أفكاره بطريقة مرنة تستند لثوابت مبدئية بالضرورة، ولكن منفتحة على شروط الواقع وظروفه، وعلى تطور الوعي الجمعي وتجذّره، وتطور وعي عبد الناصر نفسه.

أعترف، في المرة الأولى التي قرأتُ فيها «فلسفة الثورة»، قبل سنوات طوال، وكنت أصغر سناً، استغربت نوعاً ما طريقة الكتابة، وما ظننت أنه الطابع الهلامي العام لما اعتقدتُ وقتها أنه خواطر شاردة تمّ تجميعها فيه. أما اليوم، فإنني أعتقد أن المدخل إلى فهم عبقرية «فلسفة الثورة» يكمن في قراءته بعين مواطن مصري عادي غير مسيّس في بداية الخمسينيات، وبعين مجتمع لم يحسم أمر خياراته بعد، وبعين صاحب مشروع يمتلك ذهناً متوقداً يقرأ واقعه جيداً، ويتعلم الدروس العميقة من تجاربه السياسية، ويتطور بلا توقف، وإننا إذ نعيش اليوم الذكرى المئوية لميلاد هذا القائد القومي العربي العظيم من الحري بنا أن نتعلم من عبد الناصر كل هذه الأشياء، لا أن نردد شعاراته ونحفظ مقولاته فحسب. فمن يقرأ عبد الناصر، يقرأ فكره، ويتبنى منهجه الذي يظلّ اليوم أحد أبرز مداميك الفكر القومي في القرن الواحد والعشرين، جنباً إلى جنب مع إسهامات كتيبة من المفكرين والقادة القوميين الكبار من ناصريين وغير ناصريين التي نراها تكمّل بعضها بعضاً.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

منبر حر: قواعد في المشروع العربي كما اثبتها واقعاً نموذج العهد الناصري

واصل البدور

كما قواعد لغتنا العربية الجميلة ليس دائماً توضع القواعد ومن ثم يولد الكيان وإنما تستنبط قواعد عظيمة من كيان موجود بحيث تصبح قواعد أساسية في كل بناء عظيم، ذلك هو المشروع العربي الناصري. قد لا يكون ذلك النموذج قد بدأ بمشروع واضح ولكن كانت لديه الرؤية التي أنجبت مشروعاً تشتق منه الرؤى وتولد منه الأفكار والمشاريع.

إنه لا يمكن مساواة من بدأ مشروعاً يعرف طريقه ومئآله من أجل وطنه الكبير بمن بدأ مشروعاً من حيث أراد الآخر، وهنالك فرقٌ شاسعٌ بين من حمل السلاح عبر القناة الغربية المتصهينة لثورة تتناغم مع رنين أوتارهم وثورة ثائر الصحراء العربية الذي لم يملأ جيوبه مالاً ولا عيونه نوماً ولاجسده راحة ولم يبتغِ مغنماً ولم يهب مغرماً من خوض مشروع الأمة الأكبر ووطنها العظيم.

لقد كان ذلك مشروعاً واقعاً بما فيه من منجزات وعثرات ولاينكر ذلك إلا مأجورٌ او مشبوه. كان مشروعاً لابد من التأمل فيه وإعطائه حقه من الدراسة ليكون قاعدة نبدأ منها، أي كان نموذجاً حديثاً للمشروع الحضاري العربي بدل أن نخذل أنفسنا وأن نبدأ من مشروع غربي أو تركي أو أجنبي أياً كان، ولنا في التاريخ أمثلةٌ على فشل مثل تلك النماذج في الوطن العربي، وقد أثبتت التجربة الناصرية ذلك قطعياً، إذ ليس هنالك في العصر الحديث عهدٌ عربيٌ مثل عهد عبد الناصر.

كان الاستعمار الغربي للوطن العرب ذهنياً وعقلياً ونفسياً بدرجة لا تقل خطورةً عن الاستعمار العسكري الحسي. فالعقل العربي المتعب وغير الموطّن فقد معظم قيمه القومية وبنفس الوقت لم يستطع هضم أو امتصاص القيم الغربية. إن سوء التطبيق للنموذج الغربي في الحكم في المنطقة العربية ولد مزيجاً مشوشاً من الفلسفات والنظم السياسية، فكانت الديموقراطية نقاباً للديكتاتورية وأصبحت الدساتير التي أطِّرت على أنها لمصلحة الشعب العربي أداة لاستغلاله والسيطرة عليه. إنه ولأكثر من قرنٍ من الزمان كانت أكثر من نصف الدول العربية تتبع سياسة سلبية في بنائها هي: إننا نرى بوضوح ما نريد إبعاده أو إزالته واجتثاثه ولكننا لا نعلم أو نرى ما نريد بناءه (عبد الناصر).

لم يكن الظرف الموضوعي لولادة ذلك العهد هو تسلط النظام وإنما الفساد والتبعية وفقدان الإرادة الوطنية الحرة والقرار السياسي الذي أسقط بكل فساده على الواقع من تخلف واستلاب لموارد الدولة وركائزها من المستعمر بتسهيلات مقدمة من الأسر الحاكمة مقابل ثمن بخس هو عيش الملوك.

كانت الخطوط العريضة للثورة إزالة الحكم الملكي والاستعمار البريطاني كمتلازمتي المرض الرئيسي في مصر (لم يكن هدف الثورة التمكن من البلاد أو استبدال النظام الحاكم العميل بنظام أشد عمالة كما فعلت الحركات الاسلامية في فوضى ما يسمى بالربيع العربي).

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

ومن أهم محركات الثورة أن الجيش المصري آنذاك كان جيش مكاتب غير مقاتل كما أرادته بريطانيا (كما أسماهم عبد الناصر ضباط الفوتيلات أو محاربي المكاتب الذين لا يعرفون ميادين القتال وآلام الأمة)، وقد اصطدم جمال بذلك عندما ذهب الى منقباد (الصعيد) حيث كان معظم الضباط "عديمي الكفاءة وفاسدين"، ومن هنا اتجه تفكيره إلى إصلاح الجيش وتطهيره من الفساد كفكرة من أفكار المشروع، فمؤسسة الجيش هي الحلقة الأقوى في تلك المنظومة. في هذه الأثناء ظهرت في الجيش طبقة جديدة من الضباط الذين كانوا ينظرون إلى مستقبلهم في الجيش كجزء من مشروع أكبر هو تحرير شعبهم.

كما كان قرار تقسيم فلسطين محدداً حاسماً في قرار الضباط الاحرار العروبي بالتغيير والحرب في فلسطين. لقد رأى عبد الناصر ورفاقه ما رأوه في فلسطين: جيوش عربية متشظية بدون تنسيق أو قيادة عسكرية بمعنى القيادة من البرمجة والتخطيط والاستراتيجيات المرسومة والبديلة التي تنبثق من مصالح الأمة العليا. فليس هناك سوى سلاح فاسد وملك يوظف سلاح الهندسة في الجيش لبناء منتجع له للاستجمام على شواطئ غزة في أوج المعركة.
بعد عودة عبد الناصر ورفاقه من الحرب أصبحوا على يقين من أن معركة فلسطين هي معركة مصر الداخل وأن معركة مصر الداخل هي معركة فلسطين وكل معركة أخرى في الوطن العربي.

التحق عبد الناصر في الإسكندرية بحزب مصر الفتاة لكنه سرعان ما تركه حيث رأى أنه لايحقق شيئاً على أرض الواقع. ثم اقترب من الشيوعيين لفترة ولكنه رفض ذلك الحزب بسبب توجهاته الإلحادية، ومن ثم سبر الإخوان المسلمين ورفض واقعهم جملةً وتفصيلاً لما يعيشونه من عالم خيالي وهمي لا يمت للوطن بصلة وقد كانوا هم الذين ناصبوه العداء عندما أصبح قائد العرب وفي خضم معاركه مع الغرب مثبتين كما هو شأنهم دائماً أنهم أعداء العروبة وأعداء الوطن الكبير. ومن طرائف الرجعية التي اصطدموا بها أن جمال عبد الناصر ذهب إلى مفتي فلسطين الذي كان لاجئاً يقيم في مصر الجديدة فعرض عليه خدماته وخدمات جماعته الصغيرة كمدربين لفرقة المتطوعين وكمقاتلين معها. وقد أجابه المفتي بأنه لا يستطيع أن يقبل العرض منن دون موافقة الحكومة المصرية. وبعد بضعة أيام رفض العرض وهذه إضافة أخرى على أن أصحاب التوجهات الدينية في معظم حالاتهم ليسوا إلا جزءاً من منظومة الرجعية العربية المهادنة والتابعة لقوى الاستعمار الإمبريالي. وبذلك انتهى عبد الناصر ورفاقه إلى أنهم مشروعٌ جديدٌ متفردٌ غير باقي المشاريع.
لقد كانت لتلك الثورة ميزات يمكن أن تقرأ على أنها قواعد أو أركان:

• إن البدء يكون دائماً في التخلص من التبعية والاستعمار سواء كان ذلك بقلب النظام التبعي(بالثورة) أم بإزالة الهيمنة المباشرة وآثارها (كما في التأميم و حرب السويس).
• عندما قامت كل منالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بإلغاء الدعم الذي كان سيقدم للسد العالي أثبت أن المشروع القومي قادرٌ على الاستغناء عن القطب الإمبريالي للعالم وأن ذلك ليس معجزةً أو وهماً.
• كان قد خطط للثورة أن تكون عام 1955 ولكن المعطيات غيرت التاريخ وهنا نستقرئ أهمية ظروف الثورة الموضوعية ومحركاتها وكذلك عامل التخطيط.
• على الرغم من أن مصر هي الدولة العربية الأكثر سكاناً، وأنها تتوسط الأمة موقعاً، وأنها ذات الجغرافية الأكثر أهمية استراتيجياً، إلا أن ناصر أدرك جيداً أن مصر لايمكنها أن تنهض بمشروع أمة بمفردها أو أن تكون محوراً يشكل بقية العرب متعلقاته أو مكملاته، إذ لا بد من شراكة كاملة، وقد أدرك أنه مشروع عربي بدولة عربية واحدة متكافئة ليس لأي بقعة منها يدٌ على الأخرى.
• لقد وقع عبد الناصر تعاقد سلاح سري مع تشيكوسلوفاكيا ولم يعقد اتفاقاً مع الدول الإمبريالية على الرغم من وعودهم الأولى ببناء السد العالي لأنه كان يعلم عدائية الدول الإمبريالية، وأنه لايمكن له أن يأمن جانبهم.. كيف لا وقد كان ضحية من ضحايا صفقة الأسلحة الفاسدة في الفالوجة؟!
• إعلان الدولة الاشتراكية ودينها الإسلام: لا تعني الاشتراكية الاشتراكية فقط، ولكنها تعني أنه ليس هناك مكان لرأس المال الإمبريالي في دولة وطنية تسعى لتحقيق مصالحها العليا.
• الوحدة مع سورية واسم الجمهورية العربية: كانت الوحدة مع سورية على مستويين الأول حماية سورية بعد أن وقعت بين فكي صنوي الاعتداء والاحتلال: الآلة العسكرية الصهيونية من الجنوب ودولة الاحتلال التركي من الشمال، وكان ذلك تجلياً للحقيقة الطبيعية بأن العرب هم عمق العرب والملجأ الأوحد لهم. ونضيف عنواناً آخر بأن دولة المغول الأتراك هي دولة احتلال إجرامية لا يمكن مهادنتها أو الركون إليها أو أن يؤمن جانبها، وقد يكون ذلك حقيقة كونية يفرضها الواقع الجغرافي-السياسي الذي لمحه عبد الناصر باكراً ولم نلمحه بعد.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

وعلى المستوى الآخر كانت الخطوة التالية في مفهوم الوحدة ونشره في الدول العربية، لا سيما تلك التي أغرقت في مفاهيمها الإقليمية والقطرية والدينية الفاسدة، وكان من وقع الاسم أنه كان عربياً غير متحيز أو عنصر يرضي به الجميع وتمناه من لم ينل نصيباً منه من اجزاء العرب الأخرى. ولعظمة هذا الاسم وإخلاصاً لذلك المشروع ونجاعته بقي هذا الاسم حتى ما بعد وفاة عبد الناصر.

• من أهم منجزات الجمهورية العربية الجيش المحارب والصناعة وإعادة توزيع الاراضي ونقل المجتمع المصري إلى مصاف الدول المتحضرة اجتماعياً، وقد خرج عبد الناصر من عباءة أقطاب العالم فقد كان حليفاً أو صديقاً للمعسكر الشرقي نداً لند، ولم يكن تابعاً، وكان من الذين أرسوا قواعد منظمة دول عدم الانحياز مشيراً إلى أن هذه أمة قائمة بذاتها لن يقيمها شرقٌ أو غرب ولا مشكلة في التحالف أو الصداقة المتكافئة عندما لا تمس كيان الأمة العربية ولا تعتدي على العالم الآخر.

• في مقابلة مع ديفيد مورقا في الصندي تايمز في سؤال عن عدائة لليهود أجاب بأن النبي موسى كان مصرياً، وأن عداءه لليهود آتٍ من انضوائهم في الحركة الصهيونية التي قادت احتلال قطعة من الأرض العربية هي فلسطين. وعن حل المشكلة مع الدولة الصهيونية القائمة قال إن وجود هذه الكيان أمر يستحيل قبوله وأنه من المستحيل العودة عن قرارنا بعودة الفلسطينيين إلى فلسطين، وأن أية تفاهمات مع هذا الكيان غير مأخوذة بالحسبان وحتى لو أرادت التعويض فإنه من المستحيل أن تبتاع للإنسان روحاً ووطناً غير وطنه. وهذه من الدساتير البديهية لأي مشروع قادم.

• منعت الألقاب المدنية إبان العهد الملكي وقلصت صلاحيات الطريقة القديمة وحددت ملكيات الأراضي بحدٍ أعلى بالقانون وتم توسيع الفرص للملكيات وتأميم العديد من المؤسسات الكبرى، وبعد ذلك بعامٍ واحد أعلنت الجمهورية العربية المتحدة دولةً اشتراكيةً، وكذلك أنهى بعد ذلك بناء سد أسوان العالي الذي جذب انظار العالم. لقد أقيمت مصانع الحديد والألمنيوم والسيارات والغذاء بما فاق مجموعه الألفي مصنع. لقد كان ذلك إجراءً وقائياً لئلا يصبح الصراع في مجتمعنا طبقياً، وإن كان لذلك بوادر أو مقدمات، وتصبح البوصلة بوصلة معطلة.

• لم يكنْ لمصر قبل عبد الناصر في العصر الحديث وزنٌ يذكر في إدارة سياسات المنطقة العربية كدولة مركزية من المفترض أن تكون ذات وزنٍ ثقيل بحجم السياسة والجغرافيا. كان من آثار المشروع الناصري أنه كشف عن هذا الوزن وأرسى قواعد استمراره واستدامته.

على الرغم من ويلات الحرب وخساراتها، إلاأن مصر خرجت منتصرة بطريقة أخرى بأن أصبحت مثالاً عربياً يحتذى التف العرب من حوله، ولو أكمل العرب ما بدأته لكان الأمر اليوم مختلفاً تماماً. إن الثورة اكتمل شقها الأول وهو المشروع، وبقي شقها الثاني وهو الانصهار والوحدة وهذا ما كان سيثبته الواقع لو كتب له أن يكتمل.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

الوحدة وعبد الناصر

نسرين الصغير

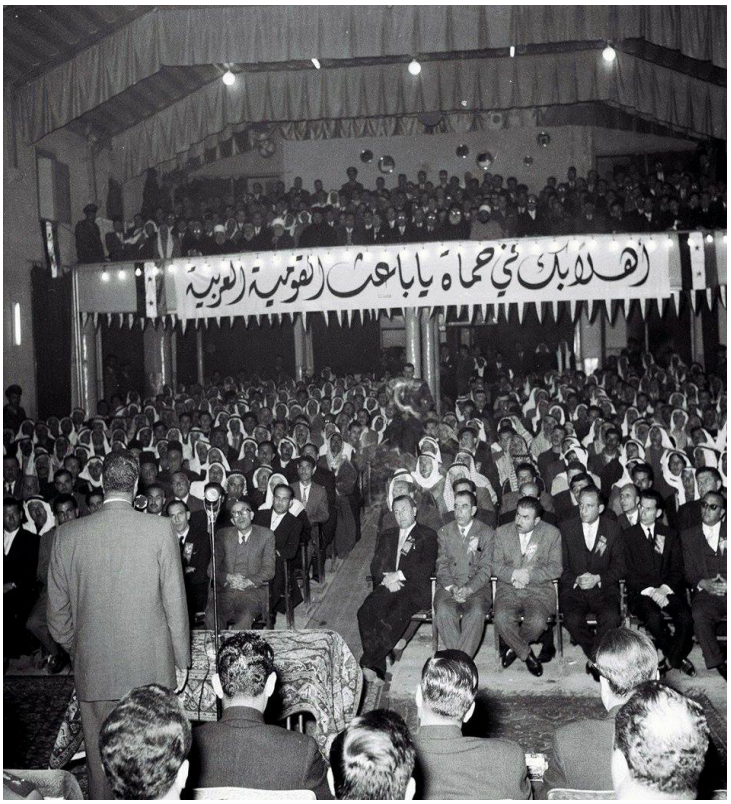

"الوحدوي هو من لا يعترف بالحدود بين الاقطار العربية، بل يعتبر الوطن العربي برمته وطنه، ويعتبره ملكية جماعية لأبناء الأمة العربية، بأجيالها السابقة والحالية وتلك التي لم تولد بعد.. "

آمن عبد الناصر بتوافر جميع شروط الأمة الواحدة في الأمة العربية: "أرض مشتركة، تاريخ مشترك، ولغة مشتركة"، لكن مشكلة هذه الأمة الوحيدة أنها مجزأة سياسياً ومتخلفة إقتصادياً وإذا تجاوز العرب هذه المشكلة سيبدأ النهوض العربي ويصبح للأمة العربية مكانٌ على هذه الأرض.

من هنا انطلق عبد الناصر في مشروعه القومي والوحدوي، فكان يؤمن أن الأمن المصري يبدأ من الأمن القومي وأن القتال في فلسطين وتحريرها هو دفاعٌ عن مصر، لأن فلسطين جزءٌ من بلاد الشام التي يعتبر أمنها جزءاً من الأمن المصري.

حاول الغرب وأمريكا خلع سورية وفصلها عن الوطن العربي في ظل سياسة الأحلاف في الخمسينيات بهدف إضعاف مصر لا سيما في العهد القومي العربي، عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وعندما بدأت المحادثات الوحدوية بين مصر وسورية كانت سرية، وبعد الإتفاق على النقاط الرئيسية للوحدة المصرية-السورية انتقل الحديث عنها لمرحلة الإعلان والحديث عنها بصوت مرتفع بعد أن وافق الوفد العربي السوري على جميع شروط عبد الناصر من أجل الوحدة.

أعلنتت الوحدة المصرية-السورية في 1 شباط 1958، وجرى الاستفتاء عليها يوم 22 شباط من العام نفسه، وكان إجماعٌ من الشعب العربي في مصر وسورية وتلاقت الرغبتان، وانتُزعت هذه الوحدة من فك الاستعمار وكانت أكبر ضربة يتلقاها العدو الصهيوني وأمريكا والغرب، وقد كتب المفكر القومي العربي ياسين الحافظ بعد اعلان الوحدة: "احرزت الحركة القومية العربية، بعد نضال استمر حوالى نصف قرن، أول انتصار قومي وحدوي في تاريخ العرب المعاصر، تمثل في وحدة مصر وسورية في إطار دولة موحدة اسمها "الجمهورية العربية المتحدة".

وكتب الرئيس الأمريكي السابق "دوايت أيزنهاور" في أوراقه: "إنني حتى هذه اللحظة لم أفهم ماذا حدث في الشرق الأوسط. لقد كانت سياستنا كما اعرف هي انتزاع سورية بعيداً عن مصر وعزل ناصر فإذا نحن نفاجئ بالعكس تماماً.. ناصر يستولي على سورية بالكامل ثم يقوم هو بعزل الملك سعود". وهنا يجب لفت النظر لمغزى ما قاله أيزنهاور، أي أن العلاقة الأمريكية-السعودية ليست بجديدة، بل هي إرث آل سعود منذ تأسيس مملكتهم التي لا تعمل إلا لخدمة المشروع الصهيوني-الأمريكي، ومن هنا خوف النظام الأمريكي من عزل ناصر للملك سعود عربياً.

وكتب رئيس الوزراء التركي عدنان مندريس إبان الوحدة المصرية-السورية: لقد ذهبت إلى فراشي بالأمس وعلى حدود بلادي الجنوبية ستة ملايين واستيقظت صباح اليوم لأجدهم قد أصبحوا ستة وثلاثين مليوناً.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

أدوات الاستعمار في بلادنا هي نفسها منذ عهد محمد علي باشا إلى جمال عبد الناصر، ولا تزال هي نفسها اليوم كما الأمس كما نشهدها في سورية بشار الأسد، ومن أكبر الأمثلة عليها النظام السعودي الذي حارب المشاريع القومية بكافة السبل، فأعلن وزير داخلية سورية في عهد الوحدة عبد الحميد السراج في مؤتمر صحفي عن رشوةٍ مالية ضخمة تلقاها من الملك سعود مقابل وضع قنبلةٍ في طائرة الرئيس عبد الناصر العائدة من دمشق إلى القاهرة، وسلّم سراج شيكات الملك سعود لعبد الناصر الذي حولها بدوره لتمويل مشروعات التصنيع في سورية.

كانت الوحدة السورية-المصرية تدغدغ احلام كل عربي، وتمكنت دولة الوحدة من افشال السياسة الاستعمارية الأمريكية في المنطقة واستطاعت اسقاط حلف بغداد ومبدأ أيزنهاور لملء الفراغ في المنطقة، وفي 28 أيلول 1961 قُتلت الوحدة وتم اعلان فك الوحدة السورية-المصرية وكان هذا الاعلان اشبه بصفعة على وجه الشعب العربي، فهذا الحلم الذي طال، وكان الحكم في الأردن أول من يعترف بالانفصال بين سورية ومصر، مع أن الشعب العربي فيه كان يتوق للانضمام للوحدة، وتلا الأردن تركيا وتايوان. واجهت الوحدة المصرية-السورية حرباً عالمية بقيادة صهيونية-أمريكية، وكان خوف الأمريكان والصهاينة من فكرة الوحدة العربية، ولو بين قطرين في البداية، خوفاً على المشروع الصهيوني في المنطقة وعلى حدود التجزئة القُطرية، وهم كانوا على علم وثقة بأن الوحدة المصرية السورية تشكل خطراً على النفوذ الأمريكي وعلى الكيان الصهيوني لأن دولتين مركزيتين كسورية ومصر لا يمكن أن يقف أمام مشروعهما القومي أي شيء، فحاولوا أن يقتلوا هذه الوحدة في المهد حتى لا تكبر ككرة الثلج ويصبح للعرب شأنٌ على هذه الأرض، فقامت الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني باستخدام القوى الرجعية والأنظمة التابعة لها للعمل على تخريب الوحدة، واعترف الملك سعود لجمال عبد الناصر شخصياً أنه دفع في إحدى المرات أحد عشر مليون جنيه استرليني للعمل ضد الوحدة.

كان لـ "بن غوريون" نظرية وهي أن ضمان سلامة الكيان الصهيوني وطول حياته يتطلب تفتيت الدول المركزية الثلاث وهي "مصر، سورية والعراق"، وكان هذا فعلاً المشروع الذي عمل عليه الصهاينة واعوانهم، ونرى اليوم، بعد إنهيار الوحدة ومحاولة الأقطار العربية أن تحافظ على المجزأ من أن يتجزأ مجدداً، نرى العراق وبعد احتلاله شبه ممزق والطائفية تفتك فيه، وفي سورية مرت سبع سنوات عجاف عاشت فيها حرباً مستمرة واستنزافاً للجيش الأول ومحاولة لتفتيتها في مؤامرة عالمية عليها وعلى نظامها القومي العربي، أما مصر بعد رحيل عبد الناصر وغرقها في مستنقع اتفاقيات السلام مع الكيان الصهيوني، من كامب ديفيد إلى الإتفاقيات الاقتصادية وغيرها، نراها دولة فقيرة بعدد سكانٍ يزيد عن التسعين مليون وحالة اقتصادية متدنية وتخلف اقتصادي وتعطيل لدورها العربي كنتيجة موضوعية لبنود اتفاقيات السلام والمديونية الدولية التي دخلت فيها مع "عصر الانفتاح" بعد عبد الناصر، وكم نترحم على مصر الناهضة الشامخة في عهد عبد الناصر الذي قال في خطاب من أشهر خطاباته: "أن المعونة الأمريكية على الجزمة"، وكان الشعب العربي في عهده لا يهاب الولايات المتحدة الأمريكية ولا يخافها.

كان عبد الناصر بقوميته العربية الداعم الأهم لكل الأقطار العربية ولحركات التحرر في إفريقيا رغم محدودية موارده.. ورغم ما كان يواجهه داخل القُطْر المصري من صعوبات اقتصادية وغيرها فقد عمل تحقيق النهوض الصناعي والعسكري في دولة قادها وهي في مرحلة ترهل من نظام ملكي حاكم تابع متخاذل ناهب لموارد الدولة، فلم يتوارَ يوماً عن خدمة الأقطار العربية، وكان الداعم الأول للثورة الجزائرية عندما فتح المعسكرت التدريب وزوّد أبطال الثورة الجزائرية بالأسلحة والمال لمحاربة احتلال استمر أكثر من مئة وثلاثين عاماً، وساند ثورة اليمن التي اندلعت في 26 أيلول 1962 والتي نتجت عن تحالف النظام السعودي مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا خوفاً من انتقال الثورة إلى الحجاز حيث قامت السعودية بتمويل بعض القبائل اليمنية بكميات من السلاح والذهب للوقوف في وجه الثورة اليمنية التي كان عبد الناصر من الداعمين لها، فقام بإرسال أبناء الجيش العربي المصري للقتال إلى جانب أبناء اليمن العربي، وقال دوغلاس رايت رئيس جهاز المخابرات البريطاني آنذاك: "إن نجاح الكولونيل ناصر فى الحصول على موطئ قدم لمشروعاته الانقلابية في الجزيرة العربية، وهى أهم مصادر البترول واحتياطاته فى العالم، هو نذير شؤم يجب أن تتعاون الأطراف كلها، ممن لهم مصلحة فى ذلك على مقاومته ودحضه".

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

فلسطين كان لها نصيب الأسد من عبد الناصر فهي ملهمته لهذه الثورة حيث جرح فيها عام 1948، تحديداً في منطقة الفلوجة جنوب فلسطين، وبعد أن شهد الفساد الملكي في هذه الحرب أيقن عبد الناصر أنه لا يمكن تحرير فلسطين تحت راية النظام الملكي الفاسد، وهنا بدأ بالتفكير في الانقلاب على هذا النظام، وفعلاً بعد أربع سنوات من احتلال فلسطين عام 1948 جاء عبد الناصر ليقود القُطْر المصري، ولم يكن عبد الناصر ليرضى بتجزيء القضية الفلسطينية بل كان يؤمن بتحرير فلسطين تحريراً كاملاً، وكان يعلم أن تحرير فلسطين ليس نزهة، بل أمرٌ لا بد من الإعداد له جيداً. وكان هدف عبد الناصر هو تعزيز القدرات الدفاعية العربية من خلال تعبئة الجهود العربية من خلال الوحدة التي اعتبر الوحدة السورية-المصرية نواتها ومقدمتها، فالوحدة والتحرير لا ينفصلان، هذا ما علمنا إياه عبد الناصر...

طلقة تنوير

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

الصفحة الثقافية: مصر بين مرحلتيْن في فيلم (المواطن مصري)

طالب جميل

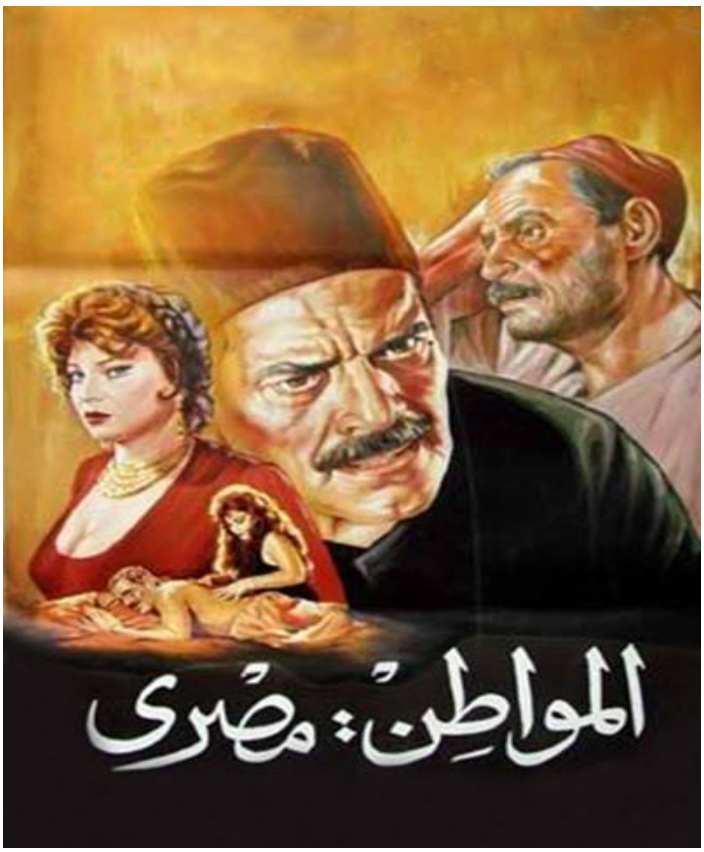

لقد كان أحد المبادىء الأساسية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢هو تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع المصري وخصوصاً الفلاحين والعاملين في الأراضي، وقد تجسّد ذلك بإصدار قانون للإصلاح الزراعي، والذي تمّت بموجبه إعادة توزيع الأراضي الزراعية التي كانت مملوكة لعدد قليل من الإقطاعيين إلى أصحابها من الفلّاحين البسطاء الذين كانوا يزرعونها، مما أدى إلى شعورهم بالعدل والإنصاف وساعد على تمكينهم من العيش بكرامة وتربية أبنائهم وتعليمهم.

هذا القانون الذي صدر بقرار من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وبدعمه وتوجيهه ساهم في تغيير حياة آلاف الفقراء من الفلاحين بشكلٍ خاص وفي تغيير شكل الحياة في مصر بشكلٍ عام، وبما يضمن تحقيق حياة كريمة للفلاح المصري الذي كان يزرع الأرض ويشقى ويتعب من أجلها.

ضمن هذا السياق جاءت أحداث الفيلم المصري (المواطن مصري)، هذا الفيلم الذي خرَجَ للنور سنة ١٩٩١، والمأخوذ عن رواية (الحرب في برّ مصر) للكاتب المصري (يوسف القعيد)، ومن إخراج المخرج المعروف (صلاح أبو سيف)، وبطولة نخبة من نجوم التمثيل في مصر أبرزهم (عزت العلايلي)، (عمر الشريف)، (عبد الله محمود)، (صفية العمري) وغيرهم.

تدور أحداث هذا الفيلم في العام ١٩٧٣ وهي الفترة التي كان أنور السادات يحكم فيها مصر، حيث شعر المواطن المصري حينها بأن هنالك رِدّة عن حكم جمال عبد الناصر واعتداء على حقوق المواطن الفقير وتقليص للمكاسب التي حصل عليها الفلاحون في عهد الرئيس عبد الناصر.

في هذا الفيلم يكسب (العمدة / عمر الشريف) – الذي يفخر بالرئيس السادات ويعلّق صورته في بهو مكتبه- القضية التي رفعها ضد الإصلاح الزراعي ويصادر الأراضي التي سبق وأن وُزّعت على الفلاحين في عهد الرئيس عبد الناصر بما فيها أرض الفلاح البسيط (عبد الموجود/ عزت العلايلي) – الذي يفخر بالرئيس عبد الناصر ويعلق صورته معه في بيته المتواضع الذي تعجّ أركانه بمظاهر الفقر والبؤس-.

يتمّ استدعاء ابن العمدة الإقطاعي (توفيق / خالد النبوي) لأداء خدمة العلم، فيحاول العمدة وتحت ضغطٍ من زوجته البحث عن مخرج يحاول من خلاله عدم إرسال ابنه المدلل لأداء الخدمة العسكرية، فيقوم باستغلال الظروف الصعبة للفلاح البسيط (عبد الموجود) وإغرائه ببعض المال، وعلى أمل أن يعطيه قطعة الأرض التي كان يملكها بالأصل في عهد عبد الناصر وذلك مقابل قيام ابنه الوحيد (مصري / عبد الله محمود) والمعفي من خدمة العلم بأداء خدمة العلم بدلاً من ابنه.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

يوافق (عبد الموجود) على ذلك ويقنع ابنه بذلك تحت ضغط الفقر والحاجة والظروف الاجتماعية الصعبة، فيما يتولّى (العمدة) ومن خلال نفوذه وسلطته وبواسطة أحد السماسرة الفاسدين تزوير الوثائق الرسمية اللازمة ليحمل (مصري ابن الفلاح عبد الموجود) اسم (توفيق ابن العمدة) مقابل رشوة مالية، وذلك في الفترة التي كان يتأهّب فيها الجيش المصري لحرب عام 1973.

يستشهد (مصري) الذي يحمل اسم (توفيق ابن العمدة) في الحرب، ويعود جثمانه إلى قريته، فيما يذهب التكريم والشرف للعمدة كون ابنه رسمياً هو الشهيد، في مشهدٍ معبّرٍ عن مدى قدرة تلك الطبقة التي يمثّلها العمدة وهي طبقة اللصوص والفاسدين من سرقة حقوق الآخرين من الفقراء، فالعمدة لم يكتفِ بسرقة أرض (عبد الموجود) منه بل سرق منه ابنه أيضاً ويسرق شرف استشهاده!

ومن حيث بدأ الفيلم بمشهد النصب التذكاري لشهداء حرب أكتوبر ينتهي هناك، حيث يظهر في النصب اسمان لشهيد واحد، الشهيد المثبت اسمه في الوثائق الرسمية (توفيق ابن العمدة)، والشهيد الحقيقي (مصري ابن الفلاح عبد الموجود)، وكأنّ المخرج يطرح السؤال الملتبس على المشاهد ليقرر من هو الشهيد.

عموماً يشكل الفيلم مقارنة بين عهدين سياسيين، وهما عهد عبد الناصر وعهد السادات، ويبدو الفيلم منحازاً بشكل أكبر لفترة حكم عبد الناصر ولثورة يوليو وما رافقها من إنجازات متعلقة بتحقيق العدالة وتكافؤ الفرص وتقليص للفجوات بين طبقات المجتمع واسترداد حقوق الفقراء والفلاحين، ويبرز في الفيلم أن هنالك حرباً داخليةً تخوضها البلد مع عصابات الفساد والعمالة متمثلةً في العمدة وأمثاله، بالإضافة إلى الحرب الخارجية التي تخوضها لتحرير الأرض المسلوبة.

الفيلم من الناحية الإخراجية لم يقدّم ما هو مبهر للمشاهد وهو يتناغم كثيراً مع طابع الأفلام المصرية التقليدية خصوصاً تلك الأفلام التي كان الريف المصري محورَ أحداثها، ويظهر ذلك واضحاً في طريقة تصوير أغلب مشاهد الفيلم وفي مضمون الحوارات التي تضمّنتها بعض المشاهد، خاصةً وأن مخرج الفيلم معروف بأنه من رواد السينما الواقعية في مصر، لذلك طرح فكرة الفيلم بالشكل التقليدي المباشر.

على الرغم من أهمية الفكرة السياسية التي تناولها الفيلم رغم بساطة القصة التي تناولها، إلا أنّه لم يقدّم ما هو جديد من الناحية الفنية، فظهر بالشكل الكلاسيكي النمطي الذي تظهر به أغلب الأفلام المصرية، ومع ذلك يمكن اعتباره من الأفلام القليلة نسبياً في مصر التي حاولت إنصاف الرئيس جمال عبد الناصر والدفاع عن الإنجازات الاقتصادية والعسكرية والعلمية التي تحققت في عهده.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

انعكاس السيطرة المصرية على جنوب بلاد الشام من خلال رسائل تل العمارنة

فارس سعادة

تمّ العثور على مدينة تل العمارنة الأثرية من قبل بعثة الاستكشاف البروسية خلال تنقيباتهم جنوب منطقة المنية ما بين الأعوام 1845-1842م، بدايةً من قرية قنديل إلى منطقة تل العمارنة، والتي بُنيت من قبل الملك المصري امنحوتب الرابع "أخناتون" في العام 1380 ق.م، وتمّ العثور على المراسلات مصادفةً من قبل سيدة مصرية تعمل بالفلاحة في العام 1887م.

تعتبر المصادر التاريخية "الكتابات" مصدراً مهماً للباحث، إلا أنّها تبقى تحمل الفكر الإنساني الذي يمثل دولةً ما أو طبقة معينة، لذلك تبقى المادة الأثرية هي الأقوى علمياً والأصدق على كشف الأحداث في الماضي. ولكن عندما تتم مطابقة المادة الأثرية بعد تحليلها وفحصها من قبل المختصين وعلماء الآثار مع المصادر التاريخية تصبح المادة التاريخية أكثر أهمية وصدقية في حال تقاطعت المادة الأثرية في نفس الفترة مع المصادر التاريخية. أي أن أقوى النظريات هي التي تنتج من مطابقة المادة الأثرية والنصوص الكتابية "التاريخية" كما في حالة رسائل تل العمارنة التي أثبتت قدرتها على عكس الماضي والفترة التي كتبت خلالها بشكل يحمل الكثير من الدقة، بالرغم من وجود الجانب "الاقتصادي" وبالتالي السياسي، والذي يتعلق بالملوك والطبقة التي تسيطر على السلطة والمدن التي كانت توجّه هذه الرسائل إلى مصر، إلا أنها عكست الاضطراب والفوضى في العصر البرونزي الأخير، وعكست النُسق الاقتصادية "التجارية" في المنطقة ككل ووضّحت النمط العام "العالمي" للعلاقات الاقتصادية-السياسية، وكَشَفت عن الكثير من الأسماء والمصطلحات "جغرافية وديموغرافية" التي يختلف الباحثون في تفسيرها.

تقسم رسائل تل العمارنة إلى ثلاث أقسام رئيسية: 1. الرسائل الملكية بين الملوك، 2. الحرب في شمال سورية، 3. الحرب في جنوب سورية أو الحرب الفلسطينية (Petrie). وتعكس المراسلات الملكية فترةَ سلامٍ قصيرة خلال حكم امنحوتب الثالث والفترة الأولى من حكم امنحوتب الرابع، وهذه الفترة تبعتها فترة فوضى وصراعات "دولية" سببت انهيارات عديدة -كما يبدو من آثار الدمار في جميع مدن المنطقة- داخل البنية الاجتماعية للمدن. وقد بدأت فترة الضعف والانهيار خلال حكم الملك امنحوتب الرابع "أخناتون".

الرسائل التي تتكلم عن جنوب سورية هي التي تهمّنا في موضوع المقال، وهي في أغلبها رسائل موجهة من قبل أمراء وحكام المدن في جنوب سورية إلى ملك مصر بشكل مباشر. فقد كانوا حكاماً تابعين للدولة المصرية، وتوضّح الرسائل الكثير من الأمور الهامّة مثل الهدايا والبيعة للملك المصري وكشوف عن الناتج الزراعي "الخصب" والخصومات والحروب والتحالفات التي كانت تحصل بين ملوك المدن مع بعضهم البعض أو مع الجماعات "البدوية" مثل "العابيرو" والتي تزامَنَ ظهورها في المنطقة مع فترة المراسلات.

هناك عشرات المراسلات من «تل العمارنة» التي تتعلق بمدن جنوب سورية والفوضى أو الحرب الدائرة في المنطقة، سيتناول البحث بعض الترجمات لهذه الرسائل ومناقشة سؤال: كيف انعكست السيطرة المصرية على المنطقة من خلال المراسلات؟

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

رسائل تل العمارنة الموجّهة من الحكام المصريين، من قادة عسكريين وقضاة ومسؤولين أخرين (Niebuhr) في مدن جنوب بلاد الشام تُبيّن وتعكس طبيعة العلاقة بين ملوك مصر ومدن جنوب بلاد الشام، من حيث أنها علاقة بين حاكم ومحكوم تماماً، وذلك من خلال النصوص شبه الموحّدة لهذه المراسلات حيث أن التحية الرسمية تبين بكل وضوح إعلان الطاعة والخضوع والتذلل لملوك مصر، فأغلب هذه المراسلات كانت تبدأ بـ: "To the king, my lord, my god, my sun, the sun of heaven; Yitia, prefect of Ashkelon is thy servant, the dust at thy feet, the servant of thy horses. At the feet of the king my lord seven times and again seven times I prostrate myself upon my back and upon my breast." (Niebuhr)

تبيّن الرسائل (100)، (260)، و(261) على التوالي أن "بايي" الذي على ما يبدو أنه مصري، قد أرسل تقارير عن الخصوبة والزراعة واحتلّ مدن جزر و"Rabbath" وأخذ أسرى (Petrie). تبين هذه الرسائل أن المنطقة كانت مضطربة بحيث أن الحكام العسكريين يواجهون "ثورات" أو تمرداً من نوع ما مما يضطرهم إلى التدخل واحتلال المدن أو المناطق المتمردة، وفي نفس الوقت كان هؤلاء الحكام مسؤولين عن إدارة شؤون المنطقة، ففي الرسالة رقم (100) يرسل "بايي" تقارير عن المحصول الزراعي للملك المصري. وهذا طبيعي بالنظر إلى أنّ مصر هي المسؤولة عن إدارة شؤون المنطقة من خلال حكام مصريين أو أمراء تابعين لها.

في الرسالة رقم (226) يستنجد "بايي" بالملك المصري ونصّ الرسالة هو: "إذا "ينخامو" "Yankhamu" لن يأتي هذه السنة فإن "العابيرو" سيستولون على البلد" (Petrie). توضّح هذه الرسالة الاضطراب الكبير في منطقة جنوب بلاد الشام وضعف السيطرة المصرية بحيث أن بعض الجماعات البدوية "العابيرو" أو المرتزقة تمتلك من القوة ما مكّنها من الوقوف في وجه حكّام المنطقة من المصريين وأمرائهم المخلصين، ونصّ الرسالة يشير إلى أن "ينخامو" ربما هو لقب لقائد عسكري مصري، أو فرقة عسكرية مصرية حسبما تشير أغلب الرسائل، وحسب "Albright" هو موظف كنعاني تابع للدولة المصرية في المنطقة (Albright)، وليس من المؤكد أن المساعدة من مصر ستأتي، لذلك حذر "بايي" من عدم قدومها، وهذا دليل على أن حتى الحاميات المصرية في جنوب بلاد الشام كانت تتعرض للحصار والخطر، وهذا يعكس ربما عدم تقديم المساعدة لهم من قبل الدولة المصرية، وذلك يعني أنه "تمّ تركهم لمواجهة مصيرهم وحدهم"!

وفي الرسالة رقم (227) الموجهة من حاكم القدس "عبد هيبة" إلى ملك مصر يقول نص الرسالة: " "عبد هيبة" متّهم بالثورة، وهو لم يحكم بالوراثة لكنه وُضِع من قبل الملك، هو متّهم لأنه "لام" ضابط الملك لتحالفه مع "العابيرو". "يناخمو" أخذ الحامية بعيداً، مدن الملك تحت حكم "إيل-ملكي" سقطت. "عبد هيبة" يخبر ضباط الملك بشكل مستمر أن الأمراء المستقلين سيسقطون. دع الفرق العسكرية تأتي، لأن أراضي الملك ضاعت، و"العابيرو" خرّبوا كل شيء"، وفي نهاية الرسالة يتضرع للملك بأن يصدقه ويرسل القوات العسكرية وإلا ستضيع كل الأراضي.

في هذه الرسالة من الواضح أن "العابيرو" وصلوا مناطق وسط فلسطين باتجاه الداخل أكثر، ففي الرسالة السابقة رقم (260) كانت الفوضى في مدينة جزر الأقرب إلى الشمال في اتجاه البحر، ووصول الفوضى إلى منطقة القدس يعني الاقتراب من الجنوب أي أقرب إلى مناطق النقب والخليل "حبرون"، وتوضّح الرسالة أيضاً ضعف السيطرة المصرية إذ أن الحاكم أو الأمير "عبد هيبة" يشكو خيانة الضابط المصري له وتحالفه مع "العابيرو" متوقّعاً سقوط الأمراء المستقلّين، وحتى كل البلد، إذا لم تتحرك الدولة المصرية. كما نجد في نص الرسالة رقم (260) أن هناك شكوكاً لدى حكام مدن جنوب بلاد الشام بأن الملك المصري سيتحرك، وهذا يعطي إشارة إلى أن هذه الرسائل في فترة حكم الملك "إخناتون" الذي لم يُعر أي انتباه لما يحصل خارج مصر، ربما بسبب الاضطراب الداخلي في مصر بسبب "الثورة الدينية" لأخناتون، وهذا ما انعكس على المراسلات؛ إذ أن هذه الرسائل لم تكن تلقى أي ردٍ من الجانب المصري حسب ما توحيه نصوص المراسلات التي في أغلبها تطلب النجدة ولكن بلا جدوى!

المراسلات رقم (228)، و(229) يشكو فيها الحاكم «ملك-إيل» في جنوب فلسطين «العابيرو» للملك ويطلب إرسال العربات، ومن ثم يشكو الضابط المصري ضعف السلطة المصرية على المنطقة يزداد وذلك بالنظر إلى انتشار «العابيرو» وبالتالي الفوضى في كل مناطق فلسطين وصولاً إلى جنوب فلسطين، مما يهدد الدولة المصرية نفسها، ورغم هذا التهديد لا وجود لمساعدة مصرية حقيقية بحسب ما تشير إليه الرسائل المرسلة من حكام وأمراء المدن في المنطقة.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

الرسائل رقم (239)، (240) المرسلة من الحاكم "لابايا" "Lapaya" حاكم "بلاطة" قرب نابلس الأن توضّح الصراع بين حكام وأمراء المدن في جنوب بلاد الشام، أي بين "ملك-إيل" أحد حكام جنوب فلسطين و"لابايا" حاكم "بلاطة". أي أن الصراعات الداخلية والتحالفات الداخلية فاقمت الأزمة في جنوب بلاد الشام كما يبدو مع ضعف السلطة المركزية في مصر خصوصاً في فترة الملك "أخناتون".

في الرسالة رقم (243) الموجهة من حاكم تل المتسلم "مجيدو" للملك المصري ونصّها: "من "بريديا" "Biridiya" إلى الملك. اثنان من أبناء "لابيا" أعطوا "العابيرو" نقوداً. وهنا يرسل حاكم "مجيدو" معلومة للملك المصري بأن "لابيا" الذي سيطر على مدينة "جزر" جنوب فلسطين يتعامل مع "العابيرو"، وهذا يشير إلى أن "العابيرو" جماعات غير مرغوب بها من الجانب المصري. هذه الجماعات، كما يبدو من خلال المراسلات، جماعات "ديموغرافية" تشكّلت على هامش المدن والحواضر وهي عبارة عن "مرتزقة" يحتمل أن تكون مكونة من عدة جماعات، مرتزقة، بدو، أو جماعات مهمّشة في المنطقة شكلت بيئة خصبة للتمرد على المدن السورية "الطبقة الحاكمة" في وقت ضعف الدولة المركزية، خصوصاً في ظل وضع اقتصادي مزدهر لا يستفيد منه سوى المصريين وموظفيهم وحلفائهم في المنطقة. ومما يلفت النظر في المراسلات أن جغرافية المعارك والفوضى يبدو أنها بدأت في المدن الأقرب لشمال فلسطين -بتأثير من الحرب في لبنان وشمال سورية- ومن ثم انتقلت إلى المدن الجنوبية ومن الداخل، القدس، طبقة فحل، جزر، بلاطة وصولاً إلى الساحل في النهاية "غزة" (Petrie 1898, Finklstein, Na`aman 2005).

أما في الرسالة رقم (244) والرسالة رقم (245) الموجهة أيضاً من حاكم تل المتسلم "مجيدو" إلى ملك مصر فيشكو حاكم "مجيدو" من "لابيا" ومحاولته السيطرة على "مجيدو" ويشكو قوة "العابيرو" ويطلب العون من القوات المصرية التي غادرت المنطقة. ولا يوجد توضيح لماذا غادرت القوات المصرية المنطقة عند تل المتسلم، وهذا تكرار لما حدث في القدس من مغاردة أو تحالف الضباط المصريين مع "العابيرو" أو مغادرتهم وعدم مساعدتهم الأمراء أو الحكام لأسباب مجهولة، ولكن المؤكد أن حالة الفوضى كانت منتشرة في المنطقة بشكلٍ عام وأن هناك حالة فراغ تركها "عدم الاكتراث" المصري أو "عدم القدرة على المساعدة" على ما يبدو في المنطقة.

في الرسالتين رقم (263) و(264) يظهر اسم الإله "داجون" أو "دجن" كما يبدو في اسم الحاكم أو "الرئيس" "دجن تاكالا" Dagantakala وهو كما يبدو اسم ينتمي لمنطقة جنوب فلسطين حيث كان يقدس الإله "دجن" قرب غزة وعسقلان، ونصّ الرسالتين يقول، (263): " من "دجن تاكالا" إلى الملك. أسأل الإنقاذ من "العابيرو و"الساشو"". وفي الرسالة (264): " من "دجن تاكالا" إلى الملك. الأب والجد أطاعوا، "دجن تاكالا" سيطيع ويسمع". ويظهر في الرسالة الأولى (263) أن الجماعات البدوية قد وصلت أغلب مناطق فلسطين إذا صحّ نسب هذه الرسالة إلى إحدى مدن جنوب فلسطين، وفي نفس الوقت تجديد الطاعة والخضوع للدولة المصرية. وتجديد الخضوع للملك المصري، رغم ضعف الدولة المصرية، ربما يعود إلى وقوع هذه المدينة في جنوب فلسطين الأقرب إلى مصر جغرافياً.

في الرسالة رقم (256) يرسل حاكم طبقة فحل "Pihili" موت-بعلو "Mut-Bal`u" إلى "ينخامو" ويبرر فيها عمله ويؤكد على ولائه وطاعته للدولة المصرية، ويرفض الاتهامات الموجّهة له من قبلهم بأنه تعامَلَ مع حاكم "عشتاروث" وهي مدينة قرب الحدود الأردنية-السورية حالياً. عدم الثقة واضحٌ بين الجميع، فمن خلال هذه الرسالة يتبين أن أغلب المدن تتقاتل، وبعضها يتحالف مع بعض كما مدن بلاطة، جزر، وطبقة فحل وربما "عشتاروث"، وينسب الملك موت-بعلو على أنه ابن ملك بلاطة "لابيا" (Finkelstein 2005).

يظهر من المراسلات أن "Chiefs" أو حكام المدن في جنوب بلاد الشام وحتى الضباط المصريون والموظفون الكنعانيون التابعون للدولة المصرية استغلّوا فترات ضعف الدولة المصرية لمصالحهم الشخصية مما سبّب "سوء حكم" في المنطقة ككل بالتزامن مع انتشار الجماعات البدوية في المنطقة وحرقهم وتدميرهم المدن بحسب نص الكثير من المراسلات (Petrie 1898). وقد يكون عدم وجود سلطة مركزية قوية في جنوب بلاد الشام قد أدّى إلى زيادة طمع "الأمراء" ومحاولة بعضهم التوسّع على حساب المدن الأخرى (Niebuhr 2008, Petrie 1898)، ومن الطبيعي أن تؤدي هذه الصراعات إلى ظواهر اجتماعية سيئة من أهمها عدم وجود الأمن، وبالتالي خطورة طرق التجارة مما يؤدي إلى ضعف الاقتصاد. ضعف الدولة المصرية في فترة حكم الملك "أخناتون" ترافق مع تمدد الدولة الحثية في اتجاه شمال سورية وصولاً إلى لبنان وشمال فلسطين، وذلك بعد سيطرة الحثيين على رقعة واسعة من الأراضي التي كانت تحت سيطرة الدولة الميتانية 1365 ق.م (Merrillees 1986).

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

توضح رسائل تل العمارنة أن سيطرة الدولة المصرية على جنوب بلاد الشام كانت تأخذ الشكل «الكولونيالي» والجيوسياسي، أي أن الدولة المصرية أرادت من سيطرتها على جنوب بلاد الشام والنظام السياسي هناك التأكد من سلامة حدودها مع جنوب بلاد الشام والحفاظ على استقرار هذه المنطقة تحديداً، وهذا ما كان واضحاً من خلال الحاميات العسكرية في مناطق جنوب بلاد الشام، والهدف الثاني لتلك السيطرة كان الاستفادة من الموارد الاقتصادية هنا «طرق التجارة» والتحكم بها من خلال حكّام محليين و»ملوك» تابعين لها وتحت قيادة موظفيها المصريين والكنعانيين.

الجغرافيا كانت عاملاً مهماً في تشكّل التحالفات كما تحالف «بلاطة» (Finkelstein, Na`aman 2005)، ولكن هذا الأمر لا يمكن قياسه سوى من الناحية البراغماتية لحكّام هذه المدن أي من خلال النظر إلى الهدف من التحالف لا ربط التحالف بأحداث تاريخية مثل «مملكة إسرائيل» مثلاً، وذلك لاختلاف الواقع الاقتصادي والاجتماعي من حِقبة إلى أخرى. التحالفات التي كانت تتشكّل بين حكّام المدن كانت تقوم على أساس براغماتي بحت لا علاقة لها بعوامل مثل «الإيديولوجيا» أو غيرها ودليل ذلك أن جميع حكام وموظفي جنوب بلاد الشام كانوا يتذللون للملك المصري بالرغم من أنّهم كانوا يعملون في الواقع ضدّ مصلحة الدولة المصرية وحسب مصالحهم الشخصية في ظلّ ضعف الدولة المركزية.

هذا ما ذكرته مراسلات «تل العمارنة» خلال فترة البرونز المتأخرة "LB IB/ LB IIA" حيث أنها عكست وضعاً متأزماً فيه الكثير من الصراعات السياسية-الاقتصادية الداخلية والخارجية مع ضعف الدولة المركزية في مصر وتمدد الدولة الحثيّة من جهة وتقلّص الدولة الميتانية في الشمال، مما زاد الضغط على الدولة المصرية بسبب سقوط حليفها «ميتاني» على يد الحثّيين، كل هذه الأحداث انعكست على مدن جنوب بلاد الشام بشكلٍ واضح جداً من خلال اختلاف حجم المدن ومساحتها والديموغرافيا السكانية عن الفترة السابقة "MB".

من أجل كل ذلك، تعتبر فترة العمارنة بأنها تركت الأثر الأكبر في جنوب بلاد الشام بحيث أنها بقيت تحت تأثير الفوضى والفراغ السياسي الذي تركه الملك المصري «أخناتون» حتى بعد حملات الملك «رمسيس الثاني» وبعد انتهاء القتال مع الدولة الحثيّة في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إذ أنّ عدم وجود أسوار دفاعية مقارنة بفترة البرونز الوسيط تَرَك المدن في جنوب بلاد الشام بلا أي دفاعات، وضعف السيطرة المصرية، أي عدم وجود سلطة سياسية مركزية، كان له أثر بعيد في النسيج الاجتماعي كما يبدو من القتال المتواصل بين المدن بعضها مع بعض وبين المدن والجماعات البدوية من «العابيرو» و»الساشو»، وهذا ما ترك ما يمكن أن يسمى عدم توازن في المنطقة بحيث أن حضارة دويلات المدن انتهت مع قدوم «شعوب البحر» بشكل نهائي وإلى الأبد.

مراسلات تل العمارنة كشفت لنا العلاقات الاقتصادية-السياسية في المنطقة ككل، أي في «شرق المتوسط»، وعبّرت من خلال المراسلات نفسها وترجماتها عن الأنساق التي كانت تحكم العلاقات الدولية والداخلية في جنوب بلاد الشام، وكيفية تعامل الدولة المصرية مع هذه المدن بحيث أنها كشفت لنا أن العلاقة كانت علاقة بين مسيطِر على الأرض وتابع، أي أنها علاقة «كولونيالية» بشكلها الأولي أي المسيطِر على طرق التجارة «اقتصاد» وعلى النظام السياسي «سيادة». هذه السيطرة التي شكّلت «البناء الفوقي» لحكام مدن جنوب سورية التي انهارت مع ضعف الدولة المصرية من الداخل («أخناتون» وصراعه مع كهنة «آمون») مما انعكس على منطقة جنوب بلاد الشام بشكل مباشر وكبير، إذ أنّ الفراغ السياسي ترك مجالاً للصراعات بين المدن وترك مساحة للجماعات «البدوية» والمرتزقة بأنْ تسيطرَ على مساحات واسعة مما هدد الدولة المصرية نفسها.

ويبدو من خلال المراسلات أنّ هناك طبقة كانت تسيطر على السلطة تماهت بالدولة المصرية وأنتجت ما يمكن اعتباره ثقافة كنعانية-مصرية مختلطة تجلّت اقتصادياً وسياسياً من خلال السيطرة المصرية على الموارد والسلطة من خلال هذه الطبقة، وثقافياً من خلال أفراد هذه الطبقة نفسها، الذين أُرسِلوا وهم صغار إلى مصر للتعلم وضمان الولاء للدولة المصرية، ومن خلال المصاهرة مع عائلات النبلاء المصريين، أما العمارة فعكست نوعاً من المزيج الجديد بين العمارة المصرية والعمارة السورية؛ بحيث أصبح هناك أكثر من نمط للعمارة بعضها ابن المنطقة وآخر مزيج بين ثقافتيْن مصرية وسورية وثالث مصري خالص، وخصوصاً داخل الحاميات العسكرية المصرية. وفي كل هذه الأنماط الجديدة كان يتجلّى دور سكان جنوب سورية فيها من خلال دورهم الإنتاجي إن كان حرفياً أو اقتصادياً أو حتى سياسياً لصالح الدولة المصرية أو ضدها، فهو في النهاية يمثل المنطقة وخصوصيتها الثقافية والديموغرافية بين الشمال والجنوب بين أهل المدن وأهل الريف والبدو.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

لعلّ الجغرافيا تعد أحد أهم العوامل التي تساهم في تحديد النظام السياسي والاجتماعي في أي منطقة، ورسائل تلّ العمارنة بيّنت الأهمية الجغرافية لجنوب سورية بالنسبة لمصر تحديداً إذ أنها تعد "الخطر" الأكبر الذي يهدد مصر دائماً، "فالفراغ" الجغرافي الكبير الذي تشكله شبه جزيرة صحراء سيناء، إن تُرك من قبل الدولة المركزية في مصر، سيجد من يملؤه، وجنوب بلاد الشام هي الأقدر على ذلك تاريخياً، "الهكسوس" مثالاً.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

تاريخيّة السّيرة (4) – المؤسّسات الدّينيّة

محمد العملة

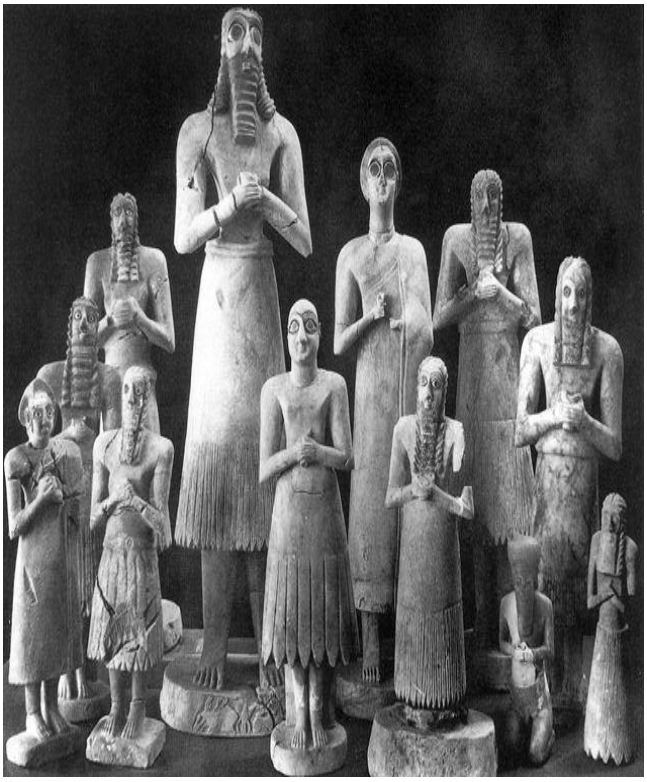

يفتتح «هشام جعيط» حديثه عن الأنثروبولوجيا الدينيّة بتعريف الدِّين، فيقول: «إنه يعني الثقافة ومحتوى الهويّة، أو فلنقل أنه أصل كل الثقافات العتيقة، ويسمي العرب (الدّين الثقافة) بعبارة (دين العرب)، أي منهجهم في الحياة».

التعريف السابق مقتضب، ويمكن الزيادة عليه بالقول أن الدين هو القانون، وأصله من الجذر «دان»، أي كل ما له سلطان على الجماعة، إذ يعبر عن القانون الرابط لها، المعبّر عن أعرافها وسمتِها، الممثل لسلطانها السياسي بصرف النظر عن ملّة كل فرد من أفرادها، فهو كدلالة معنيٌّ بالجماعة لا الفرد، على عكس المِلّة التي تدل على مفهوم يوضح العلاقة بين الفرد وما يعتنقه أو يؤمن به من عقائد، وقد شرحت سابقاً في مقالات مختلفة -على صلة بما نطرحه هنا-، المعنى المفصّل لكليهما (أعني الدّين والملّة)، لكن جرَت العادة أن يطلق مفهوم الدين على العقائد بسبب أن لها سلطاناً على المرء، وثانياً لأنّ الدين والملّة يتماهيان ويتداخلان في مفاصل عديدة، خصوصاً إن كنا نتحدث عن التاريخ القديم.

إذا كان الدين يعني كل ما سبق، فإنّ من المجحف القول بانعدام الروح الدينية عند العرب القدامى. صحيحٌ أنّ المتاع الشعائري قليل في بيئة ترحال مستمر، لكن المؤسسات الدينية ضاربة في عمق الحياة الاجتماعية، حتى وإن كانت هذه المؤسسات بعيدة عن التأملات الفلسفية، إلا أن التديّن فيهم كان أصيلاً، لأنّ الآلهة هنا مرتبطة بمتطلبات الحياة في تلك البيئة القاسية؛ كما أنّ فكرة وجود الآلهة تعبّر عن تطوّر معقد في إنثروبولوجيا هذه المجتمعات، والحق يقال، أن الإسلامويين هم الذين نفوا عن العرب قبل الإسلام كل بِرٍّ إزاء الآلهة، ووافقهم في ذلك بعض المستشرقين.

نمط التديّن وأصوله:

العنصر الأساس في تكوين الدين العربي الجديد -الذي دعا إليه النبي العربي محمد بن عبدالله- هو الإله السماوي ”الله“، وهي تسمية قديمة جداً، نجد لها آثاراً في تراث المنطقة العربية عموماً، منها نقوش أوغاريت/ رأس شمرة على شكل ”آل“ في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، و”آل“ هو نفسه ”ألاه أبتر“ عند الثموديين في القرن الثالث قبل الميلاد، وعند مسيحيي الشمال العربي ”السريان“ بصيغة ”ألاه أو إلاه“.

في نفس الوقت، نلمس عناصر خارجيّة استُجلِبَت من الشمال أو الجنوب، وشكلت نمطاً جديداً من التديّن عند العرب في ذلك الوقت، يتمثّل في التبرّك بالحجارة والأشجار المحرّمة وما شاكلها من أصنام وأوثان، ولعل هذا سبب في توصيف بعض المستشرقين للدين العربي بالوثنيّ، بالرغم أن الأصنام والأوثان ليست سوى تمثيلات للآلهة بشكل مرئي ومحسوس، لكنها ليست الآلهة ذاتها، التي هي قوى خفية لها أحاسيس وقدرات، حالها حال شقيقاتها في الأديان القديمة.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

لعل أفضل وصف لدين العرب الجاهلي هو "الشِّرك"، ولا أعني هنا أنهم يُشركون آلهة أخرى مع الإله السماوي "الله"، بل هو تعدد أصيل للآلهة عندهم والممثلة بتلك الأصنام والأوثان، ورسالة نبي العرب عمَدَت إلى محو الآلهة المتعددة، وما حولها من ممارسات، لكن هذه الرسالة -بحسب وصف هشام جعيط- لم تمسّ الطبقة الرسوبية الأبعد في الزمن والعروبة، أي الحجر الأسود والكعبة ومؤسسة الحج، إنما وجّهتها نحو إله واحد هو "الله"، مانحةً هذه الأقانيم معنىً جديداً، بوصفها رموزاً من إفرازات الروح العربية الصميمة، دون تأثير خارجي؛ والحفريات في الجزيرة العربية وشمالها تفصح عن هذه الرموز بوضوح.

لنأخذ الأنباط مثلاً، كأصحاب حضارة عربية موغِلة في القِدم، استقروا في "ها-سلع" أو البتراء، وكانوا وسطاء التجارة بين الشمال الشامي والجنوب اليمني، كما استقروا في "مديَن والحِجْر" أو "مدائن صالح"، وانشأوا "بصرى"، ونجد لديهم انتشاراً للمذابح المقعّرة المحفورة في الصخر، لتشرب الأرض دماء الذبائح، وهو ما أسماه اليونان Bet-yle، وهي في اللهجة اليمنية الحميرية القديمة "بيت إيل" أو مقر الإله. هذه المذابح إذن تمثيلٌ على مقرّ الآلهة وليست الآلهة نفسها، ولاحقاً تطورت إلى حجارة وأوثان وبقي تقليد الذبائح موجوداً عند عرب الجزيرة مما أسموه "العتائر"، وهي التي كانت تقدم للآلهة، تعظيماً وتبجيلاً لها، ولعلّ الكعبة سُميت بالبيت العتيق لأنّها تضمنت الحجر الأسود، أي مقر الإله، لكن السؤال هنا: من هو هذا الإله؟!

يرى "هشام جعيط"، خِلافاً لمعظم المؤرخين، أنّ الحجر الأسود لم يكن مقر "الله"، معتمداً في ذلك على السياق القرآني "فاعبدوا رب هذا البيت"، كون هذه الآية نزلت في الفترة المكية الأولى، أي قبل أن يصرح القرآن باسم "الله" في سور لاحقة.

هذه الفرضية قد تجعل من "الله" إلهاً يدخل في عداد آلهة العرب القرشيين، إلا أنه ليس صاحب الكعبة وربَّها، وفعلياً، "الله" صيغة مبهمة عن الإله في الحضارة العربية القديمة.

لكن بعض المؤرخين يعتقدون بأن الحجر الأسود هو مقر الإله "هُبَل"، وهنا يطرح "جعيط" فرضية مثيرة يقول فيها أن الإله "هُبَل" مذكّر، بينما الكعبة مؤنثة، مما يخلق تناقضاً ظاهرياً في أن يكون الإله ومقرّه من جنسيْن مختلفيْن، لكنه يحاول حلّ الإشكالية بفهم أصول الإله "هُبَل" فيردها إلى الآلهة Cybele (ونُقْرَأ كوبال أو كوبَل)، وهنا مكمن الفرضية.

كوبال جَلَبَها الرومان معهم من آسيا في القرن الثاني قبل الميلاد على هيئة حجر أسود تمّ تنصيبه باحتفال مهيب، وهي تتماهى مع الآلهة الشهيرة "عشتار" في التراث الديني القديم للمنطقة العربية. يحاول "جعيط" أن يربط كوبال بهُبَل، بسبب الحجر الأسود، ولأن منشأ الآلهتين يعود لأصل واحد (عقيدة الخصب)، وللتشابه بين التسميتين طبعاً، مضيفاً أنّ هُبل المذكّر قد يكون المكمّل لكوبال المؤنثة.

لكن جعيط يعود لتضعيف هذه الفكرة -وإن بدت منطقية- لسببين: الأول، أن القرآن لا يذكر "هُبَل" أبداً. والثاني، أن "هُبَل" لم يتسمّى العرب به خلافاً لآلهة أخرى ذُكرَت في أسمائهم تعبيراً عن خدمتهم لها، مثل: عبد الله، عبد اللات، عبد القيس، أوس اللات .. إلخ.

بالإضافة إلى هُبَل، هناك "منوات" التي صارت فيما بعد "مناة"، وكانت منتشرة في نواحي العراق وسورية، ومثلها الآلهة "قيس" و"يغوث" و"قَد God". هذا الأخير يلفظ "جَد" بلهجة أهل مضر، وعُرِف في مدينة تدمر بعد اندثار مملكة الأنباط، ولعل السياق القرآني في سورة الجن "جدُّ ربِّنا"، الذي استعصى بيانه، من الأفضل أن يُقرَأ "جدُّ ربُّنا" (بضم الباء)، أي بمعنى (الله ربُّنا).

وفي جنوب الجزيرة عرف العرب الآلهة اليمنية التي انتشرت مع امتداد الهجرات خلال الماضي السحيق، فكانت هناك الآلهة "شمس"، "سين"، "حوْل"، "ود"، "صحار" عند الثموديين، ومثلها "إيل"، "أوس" ، "رحيم"، "مناف"، "رحمنان أو رحمن"، "إلاة" عند اللحيانيين، و"إلاة" هي نفسها "اللات" التي تطور لفظها بتطور اللغة، وكانت حاضرة بقوة عند عرب الجزيرة لأنها كانت آلهة الحرب.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

يمكننا القول إذن، أنّ الدين العربي الجاهلي امتدادٌ لرحلة تطور الأديان القديمة في المنطقة العربية، وتطور رمزية مقر الإله من "مذابح" إلى أصنام وأوثان وحجارة يتمّ تعظيمها بوصفها مقرات للآلهة، تلك الآلهة التي كان تعددها أصيلاً ومن إفرازات البيئة الصعبة والمتطلبات الأساسية للحياة؛ لذلك استمرّ وجودها وبقيت منتشرة، فكانت القبائل تحجّ إليها وتتقرب منها في طقوس متعددة، وهذا يفتح المجال للحديث عن أهم المؤسسات الدينية العربية، تلك التي لم يحاول الإسلام محوها، أعني مؤسسة الحج.

الحجّ:

عرف العرب نوعين للحجّ، الأكبر والأصغر، وهما متباينان لأنّ كليهما ينتهي بحلق الشعر والتضحية بالأنعام، ويظهر الفرق بينهما في ما يلي:

1. الحج الأكبر ليس إلى مكّة، لذلك لم يكن فيه طواف حول الكعبة، ويقع في أشهر معلومات، ذو القعدة، ذو الحجة ومحرّم، وكان يضم وافدين من قبائل مختلفة، ومستقلٌّ عن رقابة قريش تماماً، إلى وقت استلحاق مؤسسة الحج بالإسلام في السّنة العاشرة للهجرة.
2. الحج الأصغر (العمرة) يقع في مكة، وفيه طواف حول الكعبة، وكان يقام في فصل الربيع عادة.

تميّزت المنطقة المحيطة بمكّة بتعدد الأماكن الدينيّة، فهناك الحرم، والأسواق الثلاثة الكبرى المرتبطة بالحج (ذو المجاز، عكاظ، مجنّة)، جبل عرفات، المزدلفة، مِنى، ونخلة القريبة من مكّة وفيها مقر الآلهة "العُزّى".
في الظاهر، لا تختلف طقوس الحج الأكبر الجاهلي عن ذلك الحج في الإسلام، إلا أن رمزية الطقوس هي التي اختلفت بشكل جذري، لكن قبل أن أبين الهدف من تغيير الرمزية، فإنه من المفيد الحديث عن هذه الطقوس، التي يأخذ فيها "هشام جعيط" برأي المؤرخة "جاكلين الشابي"، ويلخّصها على الشكل التالي:

- كانت العرب تقف في عرفة (جبل عرفات) إلى ما قبل غروب الشمس بقليل، وكانت تلك الوقفة مصحوبة بابتهالات وعبارات ما. رمزية الوقفة تتلخّص في الانتظار تحت حرارة الشمس اللاهبة، كنداء يوجهه الحجيج الواقفون لهذا الجرم السماوي (الإله)، أن تخف وطأته كي تنزل أمطار الخريف.
- بعد الوقفة في عرفات، يبدأ الحجيج حركتهم نحو المزدلفة، بما يسمونه الإفاضة، ولَإنْ كانت الوقفة على علاقة بالشمس، فإن الإفاضة متصلةٌ بالمطر، فما الفيض والإفاضة إلا ارتباطٌ بالمياه، وفي حركة الحجيج محاكاة لجريان سيل الأمطار التي يتمنّونها، ولأجلها وقفوا.
- بعد الإفاضة الأولى، ينطلق الحجيج إلى الأنصاب في "مِنى" متابعين إفاضتهم، تلك الموصوفة في السياق القرآني "كأنّهم إلى نصب يفيضون"، وهناك يرمون الجمار (الحصى) في مكان واحد مقدس، احتراماً وإجلالاً للآلهة. في الإنثروبولوجية العربية يعد رمي الحصى عمل بِرٍّ إزاء الآلهة، ولا علاقة له بالعنف الذي يعتقده البعض أن رمي الحصى هو رجم للشيطان!
- الطقس الأخير هو النّحر، يقع في "مِنى"، وهو موجودٌ في كل الديانات القديمة كما أسلفنا، ويعبّر عن أزمة بين الجماعة والطبيعة (انتظار المطر)، لا تنفرج هذه الأزمة إلا بإراقة دماء الأنعام لثلاثة أيام يكون فيها احتفاء واحتفال تسمى (أيام التشريق)، والتشريق في اللغة، يعني تشريح اللحم وتجفيفه، حتى يتسنّى لهم تخزينه وتناوله لاحقاً.

إن الحجَّ الجاهلي مرتبط بالعبادات الشمسية المتصلة بعقيدة الخصب الأولى، وهو طقسٌ مهيب إذ يجري في الهواء الطلق؛ فلا تكتنفه معابد مغلقة، صغيرة أم كبيرة، ولطقوسه رمزية تعبر عن حوار مع الطبيعة.

ما فعله الإسلام بإدخال مؤسسة الحجّ في شعائره، أنه غيّر من طقوسه قليلاً، فدَمَجَ الحجّ الأصغر بالأكبر، وأقحَمَ فيه الطواف حول الكعبة، كما غيَّر من وقت الإفاضة إلى المزدلفة ليجعله بعد غروب الشمس، ومن المزدلفة إلى مِنى قبل بزوغها، ليقطَعَ صلة هذه الحركات بالشمس. بعبارة أخرى، أنه أفرغ هذه الطقوس من مضمونها الأصلي مع الإبقاء على الشكل الحركي لها، والمؤدّى أنه يقطع ارتباطها بالسلوك الوثني، فيجعله خالصاً لله الذي دعا النبي العربي لعبادته، كرمز لتوحيد القبائل المتفرقة، وقد يتساءل المرء، لماذا لم يلغِ الإسلام الحجَّ من أساسه؟

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

القاعدة الأساس أن الحج مؤسسة عربية عامّة في الجاهلية، عليها إجماع واتفاق، أي أنها عامل وحدة رغم كل الاختلافات القبلية السائدة بينهم، ولأن في طقوسها ما يعبر عن التكافل والتعاضد، ولأنها تجري في أوقات حرام، حيث يكون الأمنُ حاضراً.

الحرم والحِمى والحُمس:

أما على صعيد الحج الأصغر (العمرة)، فما جنته قريش منه كان معنوياً وأدبياً أكثر من كونه مادياً، يقوم على الهيبة في البيت والحرم، والحرم هنا قد يكون تعبيراً عن فضاء مكاني أو زماني أو كليهما، ونحن نجد القرآن يتحدث عن "البلد الأمين" و"الحرم الآمن"، فما المقصود تحديداً بالحرم؟

الحرم في اللغة يعني ما هو منفصل عما سواه، فهو نقيض ما يسمّيه العرب "الحِلّ". اصطلاحا، الحرم يدل على مفهوم دينيّ معنيّ بالموانع، فلا عنف ولا قتال حتى إزاء الحيوان والنبات، لأنّ الحرم يجر الأمن وينفي كل أشكال العنف، ولذلك يرى "هشام جعيط" أن الحرم مؤسسة دينية قائمة بذاتها، وأن مكّة كانت محميّة بالدّين، وبالدّين فقط، لوجود إجماعٍ عند العرب على اعتبارها حرماً آمِناً.

إنّ مسألة الحرم توضّح أهمية الديانة العربية القديمة، في أنّها لم تكن فقط تعدداً للآلهة وتمثيلاتها فحسب، بل في كون طقوسها وموانعها على اتصال مباشر باللاوعي الإنساني الذي أبدَعَ مؤسسة عامة أخرى هي الحِمى، والحمى صورة أوسع من الحرم، فهو أقدم منه، لكنه لا يحظى بالإجماع الذي لدى الحرم. ما أعنيه، أن لكل قبيلة حماها الخاص به، فهو فضاء مكاني ترعى فيه أنعامها وينبت فيه زرعها، أي أنه حرم بالنسبة لها، ولا يكون حرماً عند غيرها.

الحمى يقيم علاقة ثلاثية بين الآلهة والطبيعة والقبيلة، وهذه العلاقة تتشابك عن قصد أو دون قصد مع ممارسات دينية مثل: البَحيرة والسائبة والوصيلة، وكلها صفات تطلق على الأنعام ضمن حمى القبيلة الفلانية.
مما سبق نجد أن قبائل الجزيرة على الرغم من أنها تبدو ضعيفة أمام التجمعات الزراعية المحيطة بها وفقدانها لمفهوم الدولة، وإحاطتها بثقافات وأديان أخرى، إلا أنّ ذلك لا ينفي ثراء تراثها الديني، خصوصاً على امتداد ساحلها الغربي في يثرب ومكة والطائف، فلم يكن هذا الشريط مستعداً للتخلي عن "دين العرب" بسهولة، وما مَنَحَ مكّة امتيازاً كان الكعبة أو الحرم الجامع.

إنّ مكّة لم تبنى على كرم الطبيعة، فهي مقفرة، إنما على العمل البشري الذكي، فالدّين أولاً، والاقتصاد ثانياً، هناك البيت والحج كيف انتظم، وهناك الحرم كيف انبنى واتّسع، وما تمخض عنه من روابط دينية كمؤسسة "الحمس".

التاريخ يتناول تأسيس مكّة بأحداث مختزلة، كحرب الفجّار والمطيّبين والأحلاف وغزو أبرهة للكعبة، و"هشام جعيط" لا يريد أن ينفي هذه الأحداث، بقدر ما يريد أن يعتمدَ على المصادر المتوافرة ليقول أن الوقائع وإن حدثت، إلا أنّه جرى تضخيمها، تحديداً دور "قصي" جدّ القرشيين الذي بولغ في الحديث عنه، لأنه الجد الأعلى للنبي العربي، وجدّ خلفاء الدولتين الأموية والعباسيّة.

لكن البيت العتيق بوصفه حرماً، لم يتخذ أهميته إلا على كاهل أجيال من أبناء وأحفاد "قصي"، أو من ينسبون أنفسهم له، ولا يمكن اختزال هذا الجهد في "قصي" نفسه. على كل حال، عززت قريش من مكانتها بين العرب بسبب الحرم كما أسلفنا، ومن خلال الحجّ الأصغر أيضاً، مما مكّنها من تأسيس رابطة "الحمس"، فكان أهل مكة يقولون: "نحن من الحمس، والحمس من الحرم"!

تشير المصادر إلى أنّ تسمية "الحمس" نابعة من ابتداع قريش لبعض الموانع والمحارم، مبالغةً منها في التديّن وتحمّساً له، ثم حملت العرب من -غير أهل مكة- خلال مواسم الحج الأصغر على التقيّد به (أي الحمس)، فكانت تفرض عليهم أن يطوفوا عراة أو يأخذوا من لباس أهل مكّة، وتمنعهم من تناول أي طعام من خارج مكّة، كما لم تكن قريش تقف في عرفة معهم، فتبقى داخل مكة، وكل هذا يدخل في ثنائية حرم/حِل ، وطاهر/نجس.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

يرى "جعيط" أن "الحمس" توثيق لمؤسسة "الحرم" وتقديس لها، لكنه يرى في الوقت نفسه أن الحمس كان موجوداً مسبقاً، إنما تمَّ الرجوع إليه وإحياؤه مرة أخرى، ثم إدخال قبائل الجوار فيه لتكوين جبهة جامعة، مما أفاد التجارة في مكّة، إذ لا تجارة دون حرمٍ آمِن من الغزوات والعنف، لكن الحمس -على الرغم من أهميته- لم يكن كافياً، فكانت هناك مؤسسة أخرى تعضده، سمّيت "الإيلاف"، تحدّثَ القرآن عنها بوضوح "لإيلاف قريش"، وكانت على شكل ميثاق بين قريش والقبائل المقيمة على خط التجارة الممتد من شبوة اليمنيّة وصولاً إلى دمشق في الشام.

التأسيس:

إن هذه الأنثروبولوجيا بشقيّها الاجتماعي والديني -مما ذكرناه في الجزء الماضي وهذا الجزء-، جعلت من قريش نمطاً حَضَرِيّاً لكنه قريب من البداوة أيضاً، فكانت لها تلك المكانة التجارية في غرب الجزيرة العربية، كما أنّ الحكم الجماعي لها (مؤسسة الملأ) حفظها من النزاعات كالتي بين الأوس والخزرج في يثرب، أو بني مالك والأحلاف في الطائف، وفي هذا الوسط ولد النبي العربي وخرج بدعوته، تلك الدعوة التي رأت فيها قريش مساساً بها، أو ما أعبر عنه بالقول أن حالة السلم الداخلي التي انتهجها حكم الملأ أوجدت مجالاً للجدل وحرية القول، فسمحت للنبي بالحديث عن دعوته.

هذا الجدل موجود بكثرة في السياق القرآني، وهو جدلٌ عقلانيٌ لم يوجد في قبائل وسط الجزيرة الرعوية، يفسّره نمط الإنتاج المعتمد على التجارة، الذي يقع في الأسواق أو فناء الكعبة، فهو نشاط كلام، نشاط متفرغين يملكون سعة من الوقت للجدل.

لكن دعوة النبي العربي بالطبع أعمق من مجرد جدل ونقاش، كما أنّها ليست إصلاحاً "لعادات الجاهلية" حيث يقتل العرب بعضهم البعض كما يتصوّر مسلمو العصور المتأخرة، ولكي نفهم الدعوة التي جاء بها محمد بن عبدالله، سنمرّ على شخصيته كمؤسِّس، وعلى التأثيرات التي انبثقت منها رسالته، لنصل لسردية الدعوة ومسارها.

يتبع..

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

قصيدة العدد: الهرم الرابع/ نزار قباني

السيّدُ نامْ
السيّدُ نام
السـيّدُ نـامَ كنـومِ السـيفِ العائـدِ مـن
إحـدى الغـزواتْ
السـيّدُ يرقـدُ مثـلَ الطفـلِ الغافـي.. فـي
حُضـنِ الغابـاتْ
السيّدُ نامَ..
وكيفَ أصدِّقُ أنَّ الهرمَ الرابعَ ماتْ؟
القائدُ لم يذهبْ أبداً
بل دخلَ الغرفةَ كي يرتاحْ
وسيصحو حينَ تطلُّ الشمسُ..
كما يصحو عطرُ التفاحْ..
الخبزُ سيأكلهُ معنا..
وسيشربُ قهوتهُ معنا..
ونقولُ لهُ..
ويقولُ لنا..
القائدُ يشعرُ بالإرهاقِ..
فخلّوهُ يغفو ساعاتْ..

يا مَن تبكونَ على ناصرْ..
السيّدُ كانَ صديقَ الشمس..
فكفّوا عن سكبِ العبراتْ..
السيّد ما زالَ هُنا..
يتمشّى فوقَ جسورِ النيلِ..
ويجلسُ في ظلِّ النخلاتْ..
ويزورُ الجيزةَ عندَ الفجرِ..
ليلثمَ حجرَ الأهراماتْ.

العدد رقم (45) صدر في 1 شباط عام 2018 للميلاد

يسألُ عن مصرَ.. ومَن في مصرَ..
ويسقي أزهارَ الشرفاتْ..
ويصلّي الجمعةَ والعيدينِ..
ويقضي للناسِ الحاجاتْ
ما زالَ هُنا عبدُ الناصرْ..
في طميِ النيلِ، وزهرِ القطنِ..
وفي أطواقِ الفلاحاتْ..
في فرحِ الشعبِ..
وحزنِ الشعب..
وفي الأمثالِ وفي الكلماتْ
ما زالَ هُنا عبدُ الناصرْ..
من قالَ الهرمُ الرابعُ ماتْ؟

يا مَن يتساءلُ: أينَ مضى عبدُ الناصرْ؟
يا مَن يتساءلُ:
هلْ يأتي عبدُ الناصرْ..
السيّدُ موجودٌ فينا..
موجودٌ في أرغفةِ الخُبزِ..
وفي أزهارِ أوانينا..
مرسومٌ فوقَ نجومِ الصيفِ،
وفوقَ رمالِ شواطينا..
موجودٌ في أوراقِ المصحفِ
في صلواتِ مُصلّينا..
موجودٌ في كلماتِ الحبِّ..
وفي أصواتِ مُغنّينا..
موجودٌ في عرقِ العمّالِ..
وفي أسوانَ.. وفي سينا..
مكتوبٌ فوقَ بنادقنا..
مكتوبٌ فوقَ تحدينا..
السيّدُ نامَ.. وإن رجعتْ
أسرابُ الطيرِ.. سيأتينا..

كاريكاتور العدد

انتهى العدد